﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

هذه صور من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث : مؤمنون وكافرون ومنافقون . . المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذى يعيش فيه . . والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعنه . . والمنافق لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع الكون . . فهو يقول ما لا يؤمن به . . وفى داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعنه ، وفى الآخرة هو فى الدرك الأسفل من النار . وهذه الآية تتشابه مع آية تحدثنا عنها فى أول هذه السورة . . وهى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فى الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود وشياطينهم من اليهود . . وهنا الدور من اليهود والمنافقين من اليهود . الحق سبحانه وتعالى يقول : «وإذا لقوا الذين امنوا قالوا آمنا» وهل الايمان كلام ؟ . . الايمان يقين فى القلب وليس كلاما باللسان . . والاستدلال على الايمان بالسلوك فلا يوجد انسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أو رياء . . يقول آمنت نفاقا ولكن سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . ولذلك كان سلوكهم هو الذى يفضحهم . يقول تعالى : «وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم» . .

وفى سورة أخرى يقول الحق :

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

وفى سورة المائدة يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة المائدة)

هنا أربع صور من صور المنافقين .. كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب .. فى الآية الأولى «وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم» وفى الآية الثانية : «إذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم» . وفى الآية الثالثة : «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» . وفى الآية الرابعة : «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا فى التوراة أوصافه كذا .. حينئذ كان أحبار اليهود ينهونهم عن ذلك ويقولون لهم : «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» فكأنهم علموا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها .. إن الغريب أنهم يقولون : «بما فتح الله عليكم» . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه .. ولو أراد الله لهم الفتح لأمنت القلوب ..

قوله تعالى : «ليحاجوكم به عند ربكم» يدل على أن اليهود المنافقين والكفار وكل خلق الأرض يعلمون انهم من خلق الله ، وان الله هو الذى خلقهم .. وماداموا يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم ؟ «ليحاجوكم به» أى لتكون حجتهم عليكم قوية عند الله .. ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا «عند ربكم» والمحاجة معناها أن يلتقى فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة

يدلى فيها كل فريق بحجته . واقرأ قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه هى المناظرة التى حدثت بين ابراهيم عليه السلام والنمرود الذى آتاه الله الملك .. ماذا قال ابراهيم ؟

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه كانت حجة ابراهيم فى الدعوة الى الله ، فرد عليه النمرود بحجة مزيفة . قال أنا أحيى وأميت .. ثم جاء بواحد من جنوده وقال لحراسه اقتلوه .. فلما اتجهوا اليه قال اتركوه .. ثم التفت الى ابراهيم :

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

جدل عقيم لأن هذا الذى أمر النمرود بقتله . كان حيا وحياته من الله .. والنمرود حين قال اقتلوه لم يمته ولكنه أمر بقتله .. وفرق بين الموت والقتل .. القتل أن تهدم بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها .. والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة لم تهدم .. الذى يميت هو الله وحده ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

والنمرود لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده الى الحياة .. ولكن ابراهيم عليه السلام .. لم يكن يريد أن يدخل فى مثل هذا الجدل العقيم ..

الذى فيه مقارعة الحجة بالحجة يمكن فيه الجدال ولو زيفا .. ولذلك جاء بالحجة البالغة التى لا يستطيع النمرود ان يجادل فيها :

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذا هو معنى الحاجّة .. كل طرف يأتى بحجته ، وما داموا يحاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسينصف المظلوم من الظالم .. اذا كانت هذه هى الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم ؟ الجواب لا .. لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم فى هذا الخطأ فهذا ليس فتحا ..

وقوله تعالى : «أفلا تعقلون» ختام منطقى للآية .. لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل .. الذى يقول «ليحاجوكم عند ربكم» يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الاله ولا يخافه لا يمكن أن يتصف بالعقل .



﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ٧٧

يبين الله لنا بأنه يعلم امرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» .. الله علم وسمع .. وعندما يلاقى المنافقون المؤمنين ويقولون آمنا .. «وإذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» هذا انفعال حركى ليس فيه كلام يقال ولكن فيه واقع يرى .. ومع ذلك فهو ليس سراً .

ما هو السر وما هو العلن ؟ .. الأمر المعلن هو الذى يخرج منك الى من عنده آله السماع ليسمعك .. والأمر المعلن يخرج منك الى من عنده آله الرؤية ليراك .. فإن كان حركة بلا صوت فهذا عدته العين .. وان كان بصوت فعدته الأذن .. هذه وسائل الادراك الأصلية ..

وقوله تعالى «يعلم مايسرون وما يعلنون» ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون .. وإذا كان يعلم ما نسر أفلا يعلم ما نعلن ؟ .. لاشك انه يعلم .. ولكنها دقة فى البلاغة القرآنية ؛ ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه .

ونحن نعلم أن الله غيب .. وغيب يعنى مستور عن حواسنا .. ومادام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور .. ربما كان العلن الظاهر له قوانين أخرى .. فمثلا إذا كان هناك شخص فى المنزل ، ثم يقول «أنا اعلم ما فى المنزل وما هو خارج المنزل .. لو قال أنا أعلم ما فى المنزل لقلنا له أنت داخله فلا غرابة فى ذلك .. ولكنك مستور عنا فى الخارج فكيف تعلمه ؟

ومادام الله غيبا فقوله ما يسرون أقرب لغيبه . وما يعلنون هى التى تحتاج وقفة . لا تظنوا أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وخفى فقط . . لا . . إنه يعلم المشهود والغائب . . إذن فالمناسب لأن الله غيب عن ابصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يسرون أولا . .

ما معنى ما يسرون ؟ . . السر هو ما لم تهمس به الى غيرك . . لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سرا . . ولكن السر هو ما تسره فى نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس . . وإذا كان السر هو ما تسره فى نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان . . والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفى . . والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب . . فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيبا . إنه يعلم السر والعلن . . والله جل جلاله يقول فى القرآن الكريم :

﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

(من الآية ٧ سورة طه)

فإذا كان السر هو ما تخفيه فى نفسك وله واقع داخلك . . «وما هو أخفى» هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك .



﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

الله سبحانه وتعالى لازال يتحدث عن أهل الكتاب .. فبعد أن بين لنا الذين يقولون : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » .. انتقل سبحانه وتعالى الى طائفة أخرى وهم من أسماهم بالأميين .. وأصح قول فى الأمى هو أنه كما ولدته أمه .. أى لم يعلم شيئا من ثقافة وعلم فى الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه . ولذلك فإن الأمى على إطلاقه هو الذى لا يكتسب شيئا من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه .. لأن الشائع فى المجتمعات أن الذى يعلم هم الخاصة لا العامة .. وعلى أية حال فالمعانى كلها ملتقية فى تعريف الأمى .

قوله تعالى : « ومنهم أميون » .. تلاحظ أن هناك معسكرات من الأميين واجهت الدعوة الاسلامية .. فالمعسكر الأول كان المشركون فى مكة ، والمعسكر الثانى كان أهل الكتاب فى المدينة . وأهل الكتاب تطلق على أتباع موسى وأتباع المسيح .. ولكن فى الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصارى .. وكان هناك مجتمع . والمقصود من قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » هم اليهود الذين كان لهم مجتمع فى المدينة .. ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ومنهم أميون » .. معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين .. وهؤلاء هم الذين سيأتى قول الله تعالى عنهم فى الآية التالية :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

هنا قسّم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام .. منهم قسم أمّى لا يعرفون

الكتاب وما يقوله لهم أحبارهم هو الذى يعرفونه فقط . . وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما فى التوراة . . من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا به . . والكتاب هنا يقصد به التوراة . . والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم . . ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أمانى . . فكأن الأمانى يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأمانى ؟ . . إنها تطلق مرة بدون تشديد الياء ومرة بتشديد الياء . . فإن كانت بالتخفيف تكون جمع أمنية . . وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمنية بالتشديد على الياء . . الأمنية تجدها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة النساء)

هذا بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد . . فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

ما هى الأمنية ؟ . . الأمنية هى الشيء الذى يحب الانسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل . . إذن لن يحدث ولن يكون له وجود . . ولذلك قالوا إن من معانى التمنى اختلاق الأشياء . . الشاعر الذى قال :

ألا لَيتَ الشَّبابَ يعودُ يوماً
فَأُخبِرَهُ بما فَعَلَ المَشِيبُ

هل الشباب يمكن أن يعود ؟ . . طبعا مستحيل . . هذا شيء لن يحدث . . والشاعر الذى قال :

لَيْتَ الكواكبَ تدنو لى فأنظمها
عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضى لكُمْ كَلِمِ

هل النجوم ستنزل من السماء وتأتى إلى هذا الشاعر . . ينظمها أبيات شعر إلى حبيبته . . إذن من معانى التمنى الكذب والاختلاق . ولقد فسر بعض المستشرقين قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى (أى قرأ) : « ألقى الشيطان فى أمنيته » (أى فى قراءته) . . وطبعا الشيطان لن يلقى فى قراءة الرسول إلا كذبا وافتراء وكفرا . . إقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

قال أعداء الإسلام مادام قد ذكر فى القرآن أسماء الغرانيق . . وهى الأصنام التى كان يعبدها الكفار . . ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . . إذن فشفاعة هذه الأصنام ترتجى فى الآخرة . . وهذا كلام لا ينسجم مع منطق الدين كله الذى يدعو لعبادة الله وحده . . وخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلا يدعو لعبادة الله وحده . . إذن فيكون الشيطان قد ألقى فى أمنيته فيما يقوله رسول الله . . ثم أحكم الله سبحانه آياته فقال تعالى :

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النجم)

وهم يريدون بذلك أن يشككوا . . فى أنه من الممكن أن يلقى الشيطان بعض أفكاره فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن الله سبحانه ينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم آياته .

إن الله جل جلاله لم يترك وحيه لعبث الشيطان . . ولذلك سنبحث الآية بعيدا عن كل ما قيل . . نقول لو أنك تنبهت إلى قول الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى) لو قلنا تمنى بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته . . إذن هو سبحانه لن يترك رسوله

يخطئ . . وبذلك ضمنا أن كل ما ينتهى إليه الرسول صواب . . وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم . . فنطمئن إلى أنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه الشيطان فى تمنى الرسول ويصلنا دون أن ينسخ .

فإذا قلنا : إن الله ينسخ مايلقى الشيطان فما الذى جعلكم تعرفون ماألقاه الشيطان مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم . . ثم من هو الرسول ؟ بَشَرٌ أُوحِيَ إليه بمنهج من السماء وأمر بتبليغه . . ومن هو النبى ؟ . . بشر أوحى إليه بمنهج . ولم يؤمر بتبليغه . . ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا النبى . . ويكون النبى قدوة سلوكية . . لأنه يطبق منهج الرسول الذى قبله فهو لم يأت بجديد .

الآية الكريمة جاءت بكلمتى رسول أو نبى . . إذا كان معنى أمنية الشيطان مستقيما بالنسبة للرسول فهو غير مستقيم بالنسبة للنبى . . لأن النبى لا يقرأ شيئا ، ومادام النبى ذكر فى الآية الكريمة فلابد أن يكون للتمنى معنى آخر غير القراءة . . لأن النبى لم يأت بكلام يقرؤه على الناس . . فكأنه سيقرأ كلاما محكما ليس فيه أمنية الشيطان أى قراءته .

إن التمنى لا يأتى بمعنى قراءة الشيطان . . وأمنية الرسول والنبى أن ينجحا فى مهمتهما . . فالرسول كمبلغ لمنهج الله ، النبى كأسوة سلوكية . . المعنى هنا يختلف . . الرسول أمنيته أن يبلغ منهج الله . . والشيطان يحاول أن ينزع المنهج من قلوب الناس . . هذا هو المعنى . . والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله فى الأرض وتنتظم حركة الناس . . هذا هو المعنى .

وكلمة تمنى فى هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبى يحب أن يسود منهجه الأرض . . والشيطان يلقى العراقيل والله يحكم آياته وينصر الحق . ويجب أن نفهم الآية على هذا المعنى . . بهذا ينتفى تماما ما يدعيه المستشرقون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما يوحى إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما فى الوحى . . مستحيل .

وقوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » . . معناها أنه يأتى

قوم لا يعرفون شيئا عن الكتاب إلا ظنا .. فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم .. وكأن الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن كثيرا من المذاهب الدينية فى الأرض ينشأ عن المبلغين لها .. فهناك أناس يأتمنون آخرين ليقولوا لهم ما إنتهت إليه الأحكام الدينية .. فيأتى الأمى أو غير المثقف يسأل عالما عن حكم من الأحكام الشرعية .. ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه .. لأن علمه قد إنتهى عند السؤال عن الفتوى .. والحق سبحانه وتعالى كما يقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

أى لا يحمل أحدا ذنب أحد يوم القيامة .. فيقول تعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

بعض الناس يظن أن الآيتين بينهما تعارض .. نقول لا .. من يرتكب إثما يحاسب عليه .. ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحل له بها ما حرم الله .. فإنه يحمل معاصيه ومعاصى من أضل .. فيكون له وزر لأنه ضل،ووزر لأنه أضل غيره .. بل وأكثر من ذلك .. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[1] .

ولابد أن نتنبه إلى خطورة الفتوى فى الدين بغير علم .. الفتوى فى الدنيا اقصى ما يمكن أن تؤدى اليه هو أن تجعلك تخسر صفقة .. لكن الفتوى فى الدين ستدوم عمرا طويلا ..

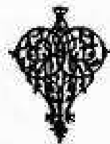
(١) (رواه أحمد ومسلم أن أبى هريرة)

الحق تبارك وتعالى يقول : « إن هم إلا يظنون » . . والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير مؤكدة . . وإذا كان التمنى كما ورد فى اللغة هو القراءة . . فهؤلاء الأميون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

وهكذا نرى أن هناك صنفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئا . . والله جل جلاله قال إن مثله كالحمار . . ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأثقال . . ولكن الإنسان ليست مهمته أن يحمل ما يجهل . . ولكن لابد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه .



﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ٧٩ ﴾

هذه الآية الكريمة جاءت فى القسم الثانى من اليهود وهو المقابل للأميين .. وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب .. وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، ويبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة . نلاحظ أن كلمة ويل فى اللغة تستعمل معها كلمتى ويح وويس .. وكلها تعنى الهلاك والعذاب .. وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

وقوله جل جلاله :

﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنبياء)

هذه الويلات تعنى الحسرة وقت رؤية العذاب .. وقيل إن الويل وادٍ فى جهنم يهوى الإنسان فيه أربعين خريفا والعياذ بالله .. والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفا .. لأن كل من ارتكب إثما نتيجة لتزييفهم للكتاب سيكونون شركاء وسيحملون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفا أضعافا كثيرة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » . . ألم يكن يكفى أن يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوما . . يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم . . نقول لا . . لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . . رئيس الدولة مثلا يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتابا بكذا فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدول نادرا ما يكتبون كتبا بأيديهم .

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . . فهم لا يكتفون مثلا بأن يقولوا لغيرهم إكتبوا . . ولكن لإهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماما . . فليست المسألة نزوة عابرة . . ولكنها مع سبق الإصرار والترصد . . وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنا قليلا ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية . . يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب فى الماضى إذا اختلفوا فى شيء . . ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم . . لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين . . يعنى لا أنهزم امامه ولا ينهزم أمامى . . وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان . . فإذا كنا سنلجأ إلى تشريع السماء ليحكم بيننا . . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منهزم ومنتصر . . ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضيا بنتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودى والمسيحى أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة . . كل منهم حسب مصلحته وهواه . . ولذلك تضاربت الأحكام فى القضايا المتشابهة . . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . . بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر . . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . . إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة . . وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ، ويكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابة ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأحبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ؟! . . الحق سبحانه وتعالى يقول : « ليشتروا به ثمنا قليلا » . . وقد قلنا إن الإنسان لا يشترى الثمن . . ولكنه يدفع الثمن ويشترى السلعة . . ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنا . . تدفع من منهج الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موقوتا . . والله سبحانه وتعالى يعطيك فى الآخرة الكثير ولكنك تبيعه بالقليل . . وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج الله يعتبر ثمنا قليلا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » . . الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » . . ثم جاء قوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » . . فساعة الكتابة لها ويل وعذاب . . وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب . . والذى يكسبونه هو ويل وعذاب .

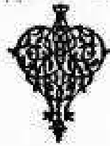
لقد انتشرت هذه المسألة فى كتابة صكوك الغفران التى كانت تباع فى الكنائس لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وويل لهم مما يكسبون » . . وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا . . وهناك كسب وهناك اكتسب . . كسب تأتى بالشىء النافع ، واكتسب تأتى بالشىء الضار . . ولكن فى هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : « وويل لهم مما يكسبون » . . وفى آية ثانية قال : « بلى من كسب سيئة» .

فلماذا تم هذا الإستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا ، إنما هو افتعال فى الكسب . . أى اكتساب . . ولابد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان . . فإن هناك القول والفعل والعمل . . بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل . . نقول لا . . هناك قول هو عمل اللسان . . وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان . . وعمل وهو أن يوافق القول الفعل . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن هناك قول وفعل وعمل .. والإنسان إذا استخدم جوارحه استخداما سليما يفعل ما هو صالح له .. فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يغضب الله فإن جوارحه لاتفعل ولكنها تفتعل .. تتصادم ملكاتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئنا لا يخاف شيئا .. والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال .. والإنسان مع زوجته منسجم فى هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون فى وضع مخالف .. إنها حالة إفتعال .. وكل من يكسب شيئا حراما إفتعله .. ولذلك يقال عنه اكتسب .. إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم معتادو الإجرام .. فى هذه الحالة يفعل الشىء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه .. هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذى يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله .. أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين فى آية واحدة .



﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس . . لقد زين لهم الشيطان الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوى وفازوا به . . لأنهم لن يعذبوا فى الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا . . ولذلك يفضح الله تبارك وتعالى مايقولونه بعضهم مع بعض . . ماذا قالوا ؟ : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة »

المس يعنى اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء . . ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر . . فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أنا مِلَكَ على يده يقال مسست . . ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو نعومة جلده . . ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » وهكذا أخذوا أقل الأقل فى العذاب . . ثم أقل الأقل فى الزمن فقالوا أياما معدودة . . الشيء إذا قيل عن معدود فهو قليل . . أما الشيء الذى لا يحصى فهو الكثير . . ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(من الآية ١٨ سورة النحل)

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشيء يمكن إحصاؤه . . فإن لم يكن ممكنا لا يُقبل أحد على عده ، ولا نرى من حاول عدَّ حبات الرمال أو ذرات الماء فى البحار . . نِعَمُ الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك

لا يُقبل أحد على إحصائها . . وإذا سمعت كلمة « أياما معدودة » فاعلم انها أيام قليلة . . ولذلك نرى فى سورة يوسف قول الحق جل جلاله :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . . دليل على غبائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة . . ولكنها أمانى وضعها الشيطان فى عقولهم ليأتى الرد من الله فى قوله سبحانه : « قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده » أى إذا كان ذلك وعدًا من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم . . بل هو جل جلاله الذى يحكم . . فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . . هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فبدلا من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أتكذبون على الله . . أو أتختلقون على الله ما لم يقله . . قال : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » إن الذى يختلق الكلام يعلم أنه مختلق . . إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدقه ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مختلق رغم أنهم صدقوه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

إذن مختلق الشىء يعرف إن هذا الشىء مختلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم . . « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » قول مختلق . . ولكن لمن يقولون على الله ما هو إفتراء وكذب ؟ يقولون للأميين الذين لا يعرفون الكتاب .

(١) (رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم)

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ ﴾

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم .. فجاء القرآن قائلا : « بلى » وهى حرف جواب مثل نعم تماما .. ولكن « بلى » حرف جواب فى النفى .. يعنى ينفى الذى قبله .. هم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سألهم هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. بداية الجواب ببلى تنفى ما قالوا .. لأن بلى تأتى بعد النفى .. ونعم تأتى بعد الاجابة .. فإذا قال إنسان ليس لك عندى شيء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندى شيء .. أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندى شيئا أو أشياء .. ولذلك بعد قولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » .. لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت .. وجاء الكلام بعدها مؤكدا النفى :

« من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هم قالوا لن تمسنا النار .. قال لن تمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون .. وقوله تعالى : « أصحاب النار » .. الصحبة تقتضى نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحبين .. ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار ..

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : « بلى من كسب سيئة » .. وكان السياق يقتضى أن يقال اكتسب .. ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا .. كما بينا فى الآية السابقة .. وقوله تعالى : « وأحاطت به خطيئته » .. احاطة بحيث

لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به . وأنسب تفسير لقوله تعالى : « كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » . . أن المراد الشرك . . لأن الشرك هو الذى يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه . . والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط . . ولكنهم كانوا كافرين مشركين . والدليل قوله تعالى : « هم فيها خالدون » . . وأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون فى النار . . ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون فى النار . . وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر . . لأن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك قلت هناك فرق بين . . الإنسان الذى يرتكب معصية لأنه لا يقدر على نفسه فيندم ويتوب . . وبين إنسان يفرح بالمعصية . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة . . وهناك من يفرح بالمعصية وهذا يزداد معصية .



﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٨٢

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. العذاب والنار، يأتى بالمقابل وهو النعيم والجنة .. ذلك أن المقابلة ترينا الفرق .. وتعطى للمؤمن إحساسا بالسعادة .. لأنه زحزح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط .. بل دخل الجنة ليقيم خالدا فى النعيم .. ولذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن الفوز فى الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين .. أولى درجات الفوز أن يزحزح الإنسان عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم .. يكفى انك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .. يكفى ذلك ليكون فوزا عظيما .. لأن الكافر فى هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار .. فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه .. فإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيما خالدا كان هذا فوزًا آخر .. ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز .. ولم يقل من أدخل الجنة فاز .. بل قال « فمن زُحْزِحَ عن النارِ وأُدخِلَ الجَنَّةَ فقد فاز » .. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل ثمانية أشياء : الميثاق . . وهو العهد الموثق المربوط ربطا دقيقا وهو عهد الفطرة أو عهد الذر . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى على رسله جميعا . . أن يبشروا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثه . . أو الا يكتموا ما فى كتبهم والا يغيروه . . والميثاق هو كل شىء فيه تكليف من الله . . ذلك أنك تدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به وتترك ما نهى عنه . . هذا هو الميثاق . . كلمة الميثاق وردت فى القرآن الكريم بوصف غليظ . . فى علاقة الرجل بالمرأة . . قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النساء)

نقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به . . أشياء لا تحل لأبيها أو لأخيها أو أى إنسان عدا زوجها . . والرجل إذا دخل على ابنته وكانت ساقها مكشوفة تسارع بتغطيته . . فإذا دخل عليها زوجها فلا شيء عليها . . إذن هو ميثاق غليظ لأنه دخل مناطق العورة وأباح العورة للزوج والزوجة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن كلا منهما يغطى ويخفى ويستر عورة الآخر . . والأب لا يفرح من انتقال ولاية ابنته إلى غيره . . إلا انتقال هذه الولاية لزوجها . . ويشعر بالقلق عندما تكبر الفتاة ولا تتزوج .

الحق يقول : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » هذا الميثاق شمل ثلاثة شروط : « لا تعبدون إلا الله » . . أى تعبدون الله وحده . . وتؤمنون بالتوراة وبموسى نبيا . . لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هى قمة الإيمان . . ولكن لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه . . بل الذى يحدد منهج العبادة هو المعبود وليس العابد . . لابد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن به . . ثم بعد ذلك تؤمن بموسى نبيا . . لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة . . وهو الذى سيبين لك طريق العبادة الصحيحة . وبدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بنى إسرائيل . .

وقوله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » لأنهما السبب المباشر فى وجودك . . ربياك وأنت صغير ، ورعياك ، وقوله تعالى : « إحسانا » معناه زيادة على المفروض . لأنك قد تؤدى الشيء بالقدر المفروض منك . . فالذى يؤدى الصلاة مثلا بقدر الغرض يكون قد أدى . . أما الذى يصلى النوافل ويقوم الليل يكون قد دخل فى مجال الإحسان . . أى عطاؤه أكثر من المفروض . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ

ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

(سورة الذاريات)

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة على المفروض فى الصلاة والتسبيح والصدقة . والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطى لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب عليك . .

وقوله تعالى : « وذوى القربى » . . يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة للإحسان . . فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا . . ولو أن كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين فى المجتمع . . والله يريد مجتمعا لا فقر فيه ولا حقد . . وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان للوالدين والأقارب . . فيكون لكل محتاج فى المجتمع من يكفله . .

يقول الله سبحانه : « واليتامى » . . واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال . . هذا فى الإنسان . . أما فى الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه . . لأن الأمومة فى الحيوان هى الملازمة للطفل ، ولأن الأب غير معروف فى الحيوان ولكن الأم معروفة . . اليتيم الذى فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله ومن يدافع عنه . . والله سبحانه وتعالى جعل الأم هى التى تربى وترعى . . والأب يكافح من أجل توفير إحتياجات الأسرة . . ولكن الحال إنقلب الآن ولذلك يقول شوقى رحمه الله :

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ
هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلاَ
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِى تَلْقَىٰ لَهُ
أُمًّا تَخَلَّتْ أَوْ أَباً مَشْغُولاَ

إن اليتيم يكون منكسرا لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له . . فإذا رأينا فى المجتمع الإسلامى أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع . . فذلك

يجعل الأب لا يخشى أن يترك إبنه بعد وفاته .. إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولا حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيما وله مال فإن الناس كلهم يطمعون فى ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه .. هذه واحده .. والثانية أن هذا التكافل يُذْهب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنا على أولاده ..

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » .. فى الماضى كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ليقيموا به حياتهم .. إلى أن نزلت الآية الكريمة فى سورة الكهف :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فعرفنا أن المسكين قد يملك .. ولكنه لا يملك ما يكفيه .. وهذا نوع من التكافل الإجتماعى لابد أن يكون موجودا فى المجتمع .. حتى يتكافل المجتمع كله .. فأنت إن كنت فقيرا أو مسكينا ويأتيك من رجل غنى ما يعينك على حياتك .. فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يصيبك .. ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئا .. هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا .. تكون النتيجة أن حقده يزداد عليك ..

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « وقولوا للناس حُسْنا » .. كلمة حسنا بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء .. والحسن هو ما حسنه الشرع .. ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ماحسَّنه الشرع أو ماحسنه العقل ؟ نقول : ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع .. لأن العقل قد يختلف فى الشيء الواحد .. هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النحل)

هذا هو معنى قوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » .. ثم جاء قوله جل

جلاله : « وأقيموا الصلاة » وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا . . وبين أن تقول أقيموا الصلاة . . أقيموا الصلاة معناها صلّ ولكن صلاة على مستواها الذى يطلب منك . . وإقامة الصلاة كما قلنا هى الركن الذى لا يسقط أبدا عن الإنسان . .

ويقول الحق : « وآتوا الزكاة » . . بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه : « وذوى القربى واليتامى والمساكين » . . نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق فى الزكاة ماداموا فقراء . . لنحس جميعا أننا نعيش فى بيئة إيمانية متكاملة متكافلة . . يحاول كل منا أن يعاون الآخر . . فالزكاة فى الأساس تعطى للفقير ولو لم يكن يتيما أو قريبا . . فإن لكل فقير حقوقا ورعاية . . فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان . . حق القريب وحق الفقير . .

وإن كان يتيما فله حق اليتيم وحق الفقير . . بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الثمانية . . قال : « ثم توليتم » . . تولى يعنى أعرض أو لم يُطعْ أو لم يستمع . . يقول الحق سبحانه : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » . . هذا هو واقع تاريخ بنى إسرائيل . . لأن بعضهم تولى ولم يطع الميثاق وبعضهم أطاع . .

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم . ولذلك احترم الواقع وقال : « إلا قليلا » . . وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال . .

إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق . . لذلك لم يقل « ثم توليتم » بل قال إلا قليلا . « توليتم » يعنى أعرضتم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » نريد أن نأخذ الدقة الأدائية . . إذا أردنا أن نفسر تولىّ . . فمعناها أعرض أو رفض الأمر . . ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقى المؤمن بالكافر فى معركة . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

إذن فالتولى هو الإعراض . . والحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة . . المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية أن يذهب ليقاتل فى مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثر عليهم الأعداء . . هذا إعراض ولكن ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر . .

نفرض أن إنسانا مدين لك رأيته وهو قادم فى الطريق فتوليت عنه . . أنت لم تعرض عنه كرها . . ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته . . إذن هناك تولٍّ أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأى نية أخرى . . أى أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا . . وليس لهدف آخر .



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلنا ساعة تسمع « إذ » فأعلم أن معناها أذكر .. وقلنا إن الميثاق هو العهد الموثق .. وقوله تعالى : « لا تسفكون دماءكم » .. والله تبارك وتعالى ذكر قبل ذلك فى الميثاق عبادة الله وحده .. وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين .. وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة إلى آخر ما جاء فى الآية الكريمة .. وكلها أوامر أى وكلها افعل .. إستكمالا للميثاق .. يقول الله فى هذه الآية الكريمة ما لا تفعل .. فالعبادة كما قلنا هى إطاعة الأوامر والامتناع عن النواهى .. أو ما نهى عنه الميثاق :

« لا تسفكون دماءكم » ومعناها لا يسفك كل واحد منكم دم أخيه .. لا يسفك بعضكم دم بعض . ولكن لماذا قال الله : « دماءكم » ؟ لأنه بعد ذلك يقول : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » .. الحكم الإيمانى يخاطب الجماعة الإيمانية على أنها وحدة واحدة .. لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا شتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[1] .

فكأن المجتمع الإيمانى وحدة واحدة .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

(١) (رواه البخارى)

ولكن إذا كنت أنا الداخل فكيف أسلم على نفسى ؟ كأن الله يخاطب المؤمنين على أساس أنهم وحدة واحدة . . وعلى هذا الأساس يقول سبحانه : « لا تسفكون دماءكم » . . أى لا تقتلوا أنفسكم . . السفك معناه حب الدم . . « ودماءكم » هو السائل الموجود فى الجسم اللازم للحياة . . وقوله تعالى : « ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم » يعنى لا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم . . ثم ربط المؤمنين من بنى إسرائيل بقوله تعالى : « ثم أقررتم وأنتم تشهدون » . . أقررتم أى اعترفتم : « وأنتم تشهدون » الشهادة هى الإخبار بمشاهد . . والقاضى يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا . . وأنت حين تروى ما شاهدت . . فكأن الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهودا وواقعا لديهم . . وشاهد الزور يغير المواقع .

الحق سبحانه وتعالى يخاطب اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويذكرهم بما كان من آبائهم الأولين . . وموقفهم من أخذ الميثاق حين رفع فوقهم جبل الطور وهى مسألة معروفة . . والقرآن يريد أن يقول لهم إنكم غيرتم وبدلتم فيها تعرفون . . فالذى جاء على هواكم طبقتموه . . والذى لم يأت على هواكم لم تطبقوه .



﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن
دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ
تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ
إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يخاطب الحق جل جلاله اليهود ليفضحهم لأنهم طبقوا من التوراة ماكان على هواهم .. ولم يطبقوا مالم يعجبهم ويقول لهم : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروه .

ولقد نزلت هذه الآية عندما زنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد بالرجم .. فقالوا نذهب إلى محمد ظانين انه سيعفيهم من الحد الموجود فى كتابهم .. أو أنه لا يعلم ما فى كتابهم .. فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا الحكم موجود عندكم فى التوراة .. قالوا عندنا فى التوراة أن نلطخ وجه الزانى والزانية بالقذارة ونطوف به على الناس .. قال لهم رسول الله لا .. عندكم آية الرجم موجودة فى التوراة فانصرفوا .. فكأنهم حين يحسبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخفف حدا من حدود الله .. يذهبون إليه ليستفتوه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » .. أى بعد أن أخذ عليكم الميثاق ألا تفعلوا .. تقتلون أنفسكم .. يقتل بعضكم بعضا ، أو أن من قتل سيقتل . فكأنه هو الذى قتل نفسه .. والحق سبحانه قال : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » .. لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه ؟ لإنها إشارة للتنبيه لكى نلتفت إلى الحكم .

وقوله تعالى : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » وحذرهم بقوله : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » .. وجاء هذا فى الميثاق . ما هو الحكم الذى

يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه ؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة إنتقل من دار شرك إلى دار إيمان . . ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا . . فهناك من آمن من أهل المدينة . . لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة ولكنها كانت هجرة إلى دار أمن وليست دار إيمان . . ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به . . أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم . . وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام على خميرة إيمانية موجودة . . لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم . . فاليهود كانوا ممثلين فى بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة . . وكان هناك فى المدينة الأوس والخزرج . . وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتى الإسلام . . فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا إستمرار العداوة . . فكلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد . . وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم .

إن الذى صنع الشيوعية يهودى ، والذى صنع الرأسمالية يهودى . . والذى يحرك العداوة بين المعسكرين يهودى . . وكان بنو النضير وبنو قينقاع مع الخزرج وبنو قريظة مع الأوس . . فإذا إشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم حلفاؤه من اليهود . عندما تنتهى المعركة ماذا كان يحدث ؟ إن المأسورين من بنى النضير وبنى قينقاع يقوم بنو قريظة بالمساعدة فى فك أسرهم . . مع انهم هم المتسببون فى هذا الأسر . . فإذا إنتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخزرج ومن حلفائهم اليهود . . يأتى اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود . . لأن عندهم نصًا انه إذا وجد أسير من بنى إسرائيل فلابد من فك أسره .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم إن أعمالكم فى أن يحارب بعضكم بعضا وأن تسفكوا دماءكم . . لا تتفق مع الميثاق الذى أخذه الله عليكم بل هى مصالح دنيوية . . تقتلون أنفسكم والله نهاكم عن هذا : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » والله نهاكم عن هذا : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » . . وهذا ما كان يحدث فى المدينة فى الحروب بين الأوس والخزرج كما بينا . . والأسارى جمع أسير وهى على غير قياسها ، لأن القياس فيها أسرى . . ولذلك نرى فى آية أخرى أنه يأتى قول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ولكن القرآن أتى بها أسارى . . واللغة أحيانا تأتى على غير ما يقتضيه قياسها لتلفتك إلى معنى من المعانى . . فكسلان تجمع كسالى . والكسلان هو هابط الحركة . . الأسير أيضا أنت قيدت حركته . . فكأن جمع أسير على أسارى إشارة إلى تقييد الحركة . . القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى . . ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلى تقييد الحركة مثل كسالى . . ومعنى وجود الأسرى أن حربا وقعت . . لحرب تقتضى الالتقاء والالتحام . . ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كلمة الأسر هذه أخذت من أجل تهدئة سعار اللقاء . . فكأن الله أراد أن يحمى القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم إستأسروهم . . لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل . . ولكن خذوهم أسرى وفى هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية . . وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة . . لأنه لو لم يكن الأسر مباحا . . لكان لابد إذا إلتقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الأخر . . لذلك يقال خذه أسيرا إلا إذا كان وجوده خطرًا على حياتك .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » . . كانت كل طائفة من اليهود مع حليفتها من الأوس أو الخزرج . . وكانت تخرج المغلوب من دياره وتأخذ الديار . . وبعد أن تنتهى الحرب يفادوهم . . أى يأخذون منهم الفدية ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم .

لماذا يقسم اليهود أنفسهم هذه القسمة . . إنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دنيوية . . لماذا ؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب . . ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج . . ويكون بينكم إثم وعدوان .

وقوله تعالى : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » . . تظاهرون عليهم . أى

تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : « بالإثم » . . والإثم هو الشيء الخبيث الذي يستحي منه الناس : « والعدوان » . . أي التعدي بشراسة . . وقوله تعالى : « وأن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » . . إي تخرجوهم من ديارهم وتأخذوا الفدية لترجعوها إليهم .

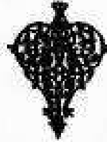
ثم يقول الله تبارك وتعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . . أي تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية . . وتقسمون أنفسكم مع الأوس أو الخزرج . . تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بإله ورسول وكتاب . . مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد أمركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :« فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاخزى في الحياة الدنيا » أي إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلى مجد دنيوى ولكنكم لم تصلوا إليه .. سيصيبكم الله بخزى في الدنيا .. أي أن الجزاء لن يتأخر إلى الآخرة بل سيأتيكم خزى وهو الهوان والذل في الدنيا .. وماذا في الآخرة ؟ يقول الله تعالى : « ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » الخزى في الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .. وأخرج بنو قينقاع من ديارهم في المدينة .. كذلك ذبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .. وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة .. وجزاء الظلم في الدنيا لايؤجل إلى الآخرة ، لأن المظلوم لابد أن يرى مصرع ظالميه حتى يعتدل نظام الكون .. ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد .. اليهود أتاهم خزى الدنيا سريعا : « يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » .

قد يتساءل الناس ألا يكفيهم الخزى في الدنيا عن عذاب الآخرة ؟ نقول لا . . لأن الخزى لم ينلهم في الدنيا حدا . . ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم . . فالخزى حين ينال الإنسان كحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة . . فالذى سرق وقطعت يده والذى زنا ورجم . . هؤلاء نالهم عذاب من حدود الله فلا يحاسبون في الآخرة . . أما الظالمون فالأمر يختلف . . لذلك فإننا نجد إناسا من الذين ارتكبوا إثما في الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم لينجوا من عذاب الآخرة . . مع انه لم يرهم أحد أو يعلم بهم أحد أو يشهد عليهم أحد . .

حتى لا يأتى واحد ليقول : لماذا لا يعفى الظالمون الذين أصابهم خزى فى الدنيا من عذاب الآخرة ؟ نقول إنهم فى خزى الدنيا لم يحاسبوا عن جرائمهم . . أصابهم ضر وعذاب . . ولكن أشد العذاب ينتظرهم فى الآخرة . . وما أهون عذاب الدنيا الذى هو بقدرة البشر بالنسبة لعذاب الآخرة الذى هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهى فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود فى العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله : « وما الله بغافل عما تعملون » . . أى لا تحسب ان الله سبحانه وتعالى يغفل عن شيء فى كونه فهو لا تأخذه سنة نوم . . وهو بكل شيء محيط .



﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضلالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .. جعلوا الآخرة ثمنا لنزواتهم ونفوذهم فى الدنيا .. هم نظروا إلى الدنيا فقط .. ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب فى كل ما تفعله ثواب الآخرة .. فالدنيا عمرك فيها محدود .. ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة .. عمر الدنيا بالنسبة لك هو مدة بقائك فيها .. فإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك .. والخروج من الدنيا بالموت .. والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفا لأن عمرنا فيها مظنون .. هناك من يموت فى بطن أمه .. ومن يعيش ساعة أو ساعات ، ومن يعيش إلى أرذل العمر .. إذن فاتجه إلى الآخرة ، ففيها النعيم الدائم والحياة بلا موت والمتعة على قدرات الله .. ولكن خيبة هؤلاء أنهم إشتروا الدنيا بالآخرة .. ولذلك يقول الحق عنهم : « فلا يخفف عنم العذاب ولا هم ينصرون » .. لا يخفف عنهم العذاب أى يجب ألا يأمنوا أن العذاب فى الآخرة سيخفف عنهم .. او ستقل درجته أو تنقص مدته .. أو سيأتى يوما ولا يأتى يوما وقوله : « ولا هم ينصرون » .. النصرة تأتى على معنيين .تأتى بمعنى انه لا يغلب .. وتأتى بمعنى أن هناك قوة تنتصر له أى تنصره .. كونه يغلب .. الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .. ولكن الله يملك النفع والضر لكل خلقه .. ويملك تبارك وتعالى أن يقهر خلقه على ما يشاء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)

أما مسألة أن ينصره أحد .. فمن الذى يستطيع أن ينصر أحدا من الله .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام :

﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة هود)

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلا يخفف عنهم العذاب » .. أمر لم يقع بعد بل سيقع مستقبلا .. يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع .. نقول إن كل أحداث الكون وما سيقع منها هو عند الله تم وانتهى وقضى فيه .. لذلك نجد فى القرآن الكريم قوله سبحانه :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

أتى فعل ماض .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى أتى ثم يقول لا تستعجلوه ؟ إنه مستقبل بالنسبة لنا .. أما بالنسبة لله تبارك وتعالى فمادام قد قال أتى .. فمعنى ذلك أنه حدث .. فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من أمور الله من الحدوث .. فالعذاب آت لهم آت .. ولا يخفف عنهم لأن أحدا لا يملك تخفيفه .



﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

بعد أن بينّ الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام .. أراد أن يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى .. وأراد أن يبين لنا موقفهم من رسول جاءهم منهم .. ولقد جاء لبنى إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالفاتهم للمنهج كانت كثيرة .. ولكن الآيةَ الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام .. لأن الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية .. ولكن لابد أن نعرف أنه قبل مجىء عيسى .. وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون .. منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم .. فكأنه فى كل فترة كان بنو إسرائيل يبتعدون عن الدين .. ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية .. فيرسل اللهُ رسولا يعدل ميزانَ حركة حياتهم .. ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلى معصيتهم وفسقهم .. فيبعث اللهُ رسولا جديدًا .. ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمعَ ويطبق شرع الله .. ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلى المعصية والكفر .

وقال اللهُ سبحانه وتعالى : « ولقد آتينا موسى الكتابَ » والقائلُ هو اللهُ جل جلاله .. والكتابُ هو التوراةُ : « وقفينا من بعده بالرسلِ » .. واللهُ تبارك وتعالى بين لنا موقفَ بنى إسرائيل من موسى .. وموقفَهم من رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين .. ولكنه لم يبين لنا موقفَهم من الرسلِ الذين جاءوا بعد موسى حتى عيسى ابن مريم .

الحقُّ سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا .. إلى أنه لم يترك الأمر لبنى إسرائيل بعد موسى .. أن يعملوا بالكتاب الذى أرسل معه فقط .. ولكنه أتبع ذلك بالرسل .. حين تسمع « قفينا » .. أى اتبعنا بعضهم بعضا .. كل يخلف الذى سبقه.« وقفينا »

مشتقة من قفا .. وقفا الشيء خلفه .. وتقول قفوت فلاناً أى سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن نلتفت إلى أن رسالة موسى لم تقف عند موسى وكتابه .. ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياءَ ليذكروا وينبهوا .. ولقد قلنا إن كثرةَ الأنبياءِ لبنى إسرائيلَ ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم .. إنهم يتفاخرون أنهم أكثرُ الأمم أنبياءً .. ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا .. فكثرة الأنبياء والرسل دلالة على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسلِ إنما يجيئون لتخليص البشريةِ من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء .. وكلما كثُر الرسلُ والأنبياءُ دل ذلك على أن القومَ قد انحرفوا بمجرد ذهابِ الرسولِ عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد .. تماما كما يكون المريض فى حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ .. وليقطع اللهُ سبحانه وتعالى عليهم الحجةَ يومَ القيامةِ .. لم يترك لهم فترةً من غفلةٍ .. بل كانت الرسلُ تأتيهم واحدا بعد الآخر على فتراتٍ قريبةٍ .

وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى .. نرى موكبًا طويلاً جاء بعد موسى .. حتى إنه لم تمر فترةٌ ليس فيها نبى أو رسول .. وحتى نفرقَ بين النبىِ والرسولِ .. نقول النبىُ مرسلٌ والرسولُ مرسلٌ .. كلاهما مرسلٌ من اللهِ .. ولكنِ النبىَ لا يأتى بتشريعٍ جديدٍ .. وإنما هو مرسلٌ على منهجِ الرسولِ الذى سَبَقَهُ .. واقرأ قولَهُ سبحانَه :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبى مرسل أيضاً .. ولكنه أسوةٌ سلوكيةٌ لتطبيقِ منهجِ الرسولِ الذى سبقه .

وهل اللهُ سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟ إقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن هناك رسلٌ وأنبياء أرسلوا إلى بنى إسرائيل لم نعرفهم .. لأن الله لم يقصص علينا نبأهم .. ولكن الآية الكريمة التى نحن بصددها لم تذكر إلا عيسى عليه السلام .. باعتباره من أكثر الرسل أتباعا .. والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى أيده بالآيات والبينات التى تثبت صدق بلاغه عن اللهِ .. ولذلك قال جل جلاله : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناه بروحِ القُدُس » .. وعيسى ابنُ مريمَ عليه السلام جاء ليرد على المادية التى سيطرت على بنى إسرائيل .. وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشيء المادى المحسوس .. فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب .. حتى إنهم قالوا لموسى : « أرنا اللّهَ جهرةً » .. وحين جاءهم المن والسلوى رزقاً من الله .. خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزقٌ غيبيٌّ فطلبوا نبات الأرض .. لذلك كان لابد أن يأتى رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية .. مولده أمر غيبى ، وموته أمر غيبى ورفعه أمر غيبى ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلى صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتى عن غير طريق التكاثر المادىّ .. أى الذى يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منوىّ .. واللهُ سبحانه وتعالى أراد أن يخلع من أذهان بنى إسرائيل ان الأسباب المادية تحكمه .. وإنما هو الذى يحكم السبب . هو الذى يخلق الأسباب ومتى قال : « كن » كان .. بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون .. وفى قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيئته هى السبب وهى الفاعلة .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فكأن الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هما السبب فى الإنجاب . . ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة على الأسباب . . فيأتى رجل وامرأة ويتزوجان ولكنهما لا ينجبان . . فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئا إلا بإرادة المسبب .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناه بروحِ القُدُسِ » . . لماذا قال الحق تبارك وتعالى : « وأيدناه بروحِ القُدُسِ » . . ألم يكن باقى الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

نقول : لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع فى كل أمر له . . ميلاداً ومعجزةً وموتاً . . والروحُ القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبدا . . لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائماً للهجوم . . ولذلك لابد أن يكون الوحى فى صحبته لا يفارقه . . ليجعل من مهابته على القوم ما يرد الناس عنه . . وعندما يتحدث القرآن انه رفع إلى السماء . . اختلف العلماء هل رفع إلى السماء حيا ؟ أو مات ثم رفع إلى السماء ؟ نقول : لو أننا عرفنا أنه رُفع حيا أو مات فما الذى يتغير فى منهجنا ؟ لاشىء . . وعندما يقال إنه شىء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت . . نقول إن عيسى ابنَ مريمَ لم يتبرأ من الوفاة . . إنه سيُتَوَفَّى كما يُتَوَفَّى سائر البشر . . ولكن هل كان ميلاده طبيعياً ؟ الاجابة لا . . إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب . . فإذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسينزل إلى الأرض فما العجب فى ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حياً ؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام . . إذن فالمبدأ موجود . . فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله فى آخر الزمان ؟ والفرق بين محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً فى السماء ، بينما عيسى بقى . . والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

عن إبن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم إبن مريم صلى الله عليه وسلم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)[1] .

(١) رواه البخارى فى المظالم ومسلم فى الإيمان وأبو داود فى الملاحم والترمذى فى الفتن وإبن ماجه فى الفتن وورواه أحمد فى المسند .

وهذا الحديث موجود فى صحيح البخارى .. فقد جعله الله مثلا لبنى إسرائيل .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ ﴾

(سورة الزخرف)

قوله تعالى : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ » .. البينات هى المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات .. وهى الأمور البينة الواضحة على صدق رسالته .

لكننا إذا تأملنا فى هذه المعجزات .. نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله كإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله .. وبعضها نسبها إلى معجزته كرسول .. ومعروف انه كرسول يؤيده اللهُ بمعجزات تخرق قوانين الكون .. ولكن هناك فرق بين معجزة تعطى كشفاً للرسول .. وبين معجزة لابد أن تتم كل مرة من الله مباشرة .. واقرأ الآية الكريمة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى فى الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدخرون فى بيوتهم كشفاً من الله .. كان إحياء الموتى فى كل مرة بإذن الله .. وليس كشفا ولا معجزة ذاتية لعيسى عليه السلام .. إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام .. ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائما معه .. وهذا معنى قوله تعالى : « وأيدناه بروحِ القُدُسِ » .. وأيدناه مشتقة من القوة ومعناها قويناه

بروح القدس فى كل أمر من الأمور . . وكلمة روح تأتى على معنيين . . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . . وهناك روح أخرى هى روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة . . ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والقرآن روح . . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم . . إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح . . والقدس هذه الكلمة تأتى مرة بضم القاف وتسكين الدال . . ومرة بضم القاف وضم الدال . . وكلا اللفظين صحيح وهى تفيد الطهر والتنزه عن كل ما يعيب ويشين . . والقدس يعنى المطهر عن كل شائبة .

قوله تبارك وتعالى : أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم » قوله تعالى : « أفكلما » . . هناك عطف وهناك استفهام ، وهى تعنى أكفرتم ، وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . . أى إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . . وهم يريدون أن يشرعوا لرسلهم . . فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذَّبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : « بما لا تهوى أنفسكم » . . هناك هَوَى بالفتحة على الواو وهَوِىَ بالكسرة على الواو . . هَوَى بالفتحة على الواو بمعنى سقط إلى أسفل . . وهَوِىَ بالكسرة على الواو معناه أحب وأشتهى . . اللفظان ملتقيان . . الأول معناه الهبوط ، والثانى حب الشهوة والهوى يؤدى إلى الهبوط . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها إرتفعوا من موقعكم الهابط . . إذن فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعطينا هذا المعنى ، وكيف ان الدين يعصمنا من أن نهوى ونسقط فى جهنم يقول :

(إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم موحمون فيه)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى الزهد ، وإبن ماجه فى الزهد . ورواه أحمد .

ومعنى آخذ بحجزكم أى آخذ بكم .. وكأننا نقبل على النار ونحن نشتهيها باتباعنا شهوتنا .. ورسول الله بمنهج الله يحاول أن ينقذنا منها .. ولكن رب نفس عشقت مصرعها .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة البقرة)

معنى استكبرتم أى أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له .. إدعيتم أنكم كبارٌ ولستم كبارًا .. ولكن هل المشرع مساو لك حتى تتكبر على منهجه ؟ طبعا لا .. قوله تعالى : « ففريقا كذبتم » .. والكذب كلام يخالف الواقع .. أى أنكم اتهمتم الرسل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع . لأنه يخالف ما تشتهيه أنفسكم .. وقوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. التكذيب مسألة منكرة .. ولكن القتل أمر بشع .. وحين ترى إنسانا يتخلص من خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام خصمه .. وإن طاقته وحياته لا تطيق وجود الخصم .. ولو انه رجلٌ مكتمل الرجولة لما تأثر بوجود خصمه .. ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله ..

قوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. مثل نبى الله يحيى ونبى الله زكريا .. وهناك قصص وروايات تناولت قصة سالومى .. وهى قصة راقصة جميلة أرادت إغراء يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغرائها .. فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه .. وفعلا قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة .



﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم .. فماذا قالوا ؟ لقد قالوا « قلوبنا غلف » والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف .. وهناك غلْف بسكون اللام ، وغلُف بضم اللام .. مثل كتاب وكتب « قلوبنا غلف » أى مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكأنهم يقولون إننا لسنا فى حاجة إلى كلام الرسل .. أو « قلوبنا غلف » أى مغلفة ومطبوع عليها .. أى ان الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهدى .. ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا .. ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » : لفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح .. فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل .. ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله .. فلا تنفذ إشعاعات النور ولا الهداية إلى قلوبهم .. ولكن ذلك ليس لأن الله ختم عليها بلا سبب .. ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى .. فصدوه بالكفر أولا .. ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله .. لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر ــ علها تنجيهم من العذاب يوم القيامة ــ يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (من الآية ٨ سورة فاطر)

تلك هى حجة الكافرين الذين يظنون انها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة . . إنهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء . . ومادام اللهُ قد شاء أن يضلنى فما ذنبى أنا ؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له : إن الله إذا قيد أمرا من الأمور المطلقة فيجب أن نلجأ إلى التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

« ويقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . . الكافرين والظالمين والفاسقين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟! إنسان واجه الله بالكفر . . كفر بالله . . رفض أن يستمع لآيات الله ورسله . . ورفض أن يتأمل فى كون الله . . ورفض أن يتأمل فى خلقه هو نفسه ومن الذى خلقه . . ورفض أن يتأمل فى خلق السموات والأرض . . كل هذا رفضه تماما . . ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . . لأنه فعل ذلك أولا . . ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وضع له فى الكون وفى نفسه آيات تجعله يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذى بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه .

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله .. يذكرونه بقدرة الله وقوة الله فلا يلتفت .. يختم الله على قلبه .. كذلك الإنسان الفاسق الذى لا يترك منكرا إلا فعله .. ولا إثما إلا ارتكبه .. ولا معصية إلا أسرع إليها .. لا يهديه الله .. أكنت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم قهرا أو قَسْرًا ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ؟ طبعا لا .. ذلك يضيع الاختيار البشرى فى أن يطيع الإنسان أو يعصى .

والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه .. فى أجسادنا التى تعمل أعضاؤها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية .. والمعدة والأمعاء والكبد .. كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله .. لا نستطيع أن نأمره ليفعل فيفعل .. وأن نأمره ألا يفعل فلا يفعل .. وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث فى الكون .. فهذا يمرض ، وهذا تدهمه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر .. وهذا يسقط ، وهذا يعتدى عليه إنسان .. كل الأشياء التى تقع عليك لا دخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها .. بقى ذلك الذى يقع منك وأهمه تطبيق منهج الله فى افعل ولا تفعل .. هذا لك اختيار فيه .

إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب فى الآخرة عدلا .. فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان .. وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل .. وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة .. إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدى القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين .. فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق .. ويكون فى هذه الحالة هو الذى اختار فحق عليه عقاب الله .. لذلك فقد قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .. فاختاروا عدم الهداية ..

لقد أثارت هذه القضية جدلا كبيراً بين العلماء ولكنها فى الحقيقة لا تستحق هذا

الجدل .. فالله سبحانه وتعالى قال : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم » .. واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .. ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى .. لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد .

فمثلا .. إبنك الصغير يطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته .. والأكبر أشد فأشد .. فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدارٌ لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشرى .

قوله تعالى : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم » .. أى طردهم الله بسبب كفرهم .. والله تبارك وتعالى لا يتودد للناس لكى يؤمنوا .. ولا يريد للرسل أن يتعبوا أنفسهم فى حمل الناس على الإيمان .. إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أى انهم لا يستطيعون الا يؤمنوا إذا أردناهم مؤمنين قهرا .. ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا .. وإيمان العبد هو الذى ينتفع به .. فالله لا ينتفع بإيمان البشر .. وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله .. قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله .. ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة .. نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله ..

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هى : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك .. لذلك يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاءِ عن الشِّرْكِ من عَمِلَ عملا أَشْرَكَ فيه معى غيرى تركْتُهُ وشِركَه)[1] .

---

(١) رواه مسلم .

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية .. هى شهادة الذات للذات .. وذلك فى قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

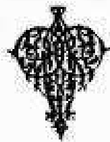
(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله .. شهد لنفسه بالألوهية .. ولنقرأ الآية الكريمة :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات. والملائكة شهدوا بالمشاهدة .. وأولو العلم بالدليل .. والحق تبارك وتعالى يقول : « فقليلا ما يؤمنون » .. عندما تقول قليلا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة الإحتمال ، لأنه من الممكن أن يتوب واحد منهم إلى رشده ويؤمن .. فيبقى الله البابَ مفتوحا لهؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم فى شبابهم قد يأتون فى آخر عمرهم ويتوبون .. فى ظاهر الأمر انهم أسرفوا على أنفسهم .. ولكنهم عندما تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم .. لذلك يقول الله جل جلاله : « فقليلا ما يؤمنون » أى أن الأغلبية تظل على كفرها .. والقلة هى التى تعود إلى الإيمان .



﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى .. أن بنى إسرائيل قالوا إن قلوبهم غلف لا يدخلها شعاع من الهدى أو الإيمان .. أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة أخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به .. ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذى معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف .. ولكنهم كانوا قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذى ذكر عندهم فى التوراة .. وكانوا يقولون لأهل المدينة .. أهَلّ زمن رسول سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم .

ولقد كان اليهود يعيشون فى المدينة .. وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهددونهم بالرسول القادم .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .

واليهود فى كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبى الذى يهددنا به اليهود وأسرعوا يبايعونه .. فكأن اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس فى الطائف .. وينتظر القبائل عند قدومها إلى مكة فى موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيصدونه ويضطهدونه .. وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب هو إليهم ،

وأعلنوا مبايعته والإيمان برسالته ونشر دعوته . . دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك . . ثم دعوه ليعيش بينهم فى دار الإيمان . . كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن إتبعوه .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا » . . أى أنهم قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أطل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه . . فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسالته .

وقوله تعالى : « على الذين كفروا » . . أى كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد . . لأن الرسول لم يأت . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا تمام الصورة فى قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وهكذا نرى أن بنى إسرائيل فيهم جحود مركب جاءهم الرسول الذى انتظروه وبشروا به . . ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم فى التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله . . واللعنة كما قلنا هى الطرد من رحمة الله .



﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠)﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمته .. بين لنا أنهم : « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكلمة إشترى سبق الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التى نريدها .. ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة .. على أننا لابد أن نتحدث أولا عن الفرق بين شرى واشترى .. شَرَى بمعنى باع .. واقرأ قوله عز وجل :

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة انهم باعوه بثمن قليل .. واشترى يعنى ابتاع .. ولكن اشترى قد تأتى بمعنى شرى .. لأنك فى بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة ومعك مال .. وتذهب وتشترى السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم .. ولكن لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا .. وليس عندك المال ولكن عندك سلعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم فاخر .. فتذهب إلى الصيدلية وتعطى الرجل سلعة مقابل سلعة .. أصبح الثمن فى هذه الحالة مشترى .. إذن فمرة يكون البيع مشترى ومرة يكون مبيعًا ..

والحق تبارك وتعالى يقول : « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكأنما يعيرهم بأنهم يدعون الذكاء والفطنة .. ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء .. لو كانوا حقيقة يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أتموا صفقة خاسرة .. الصفقة الرابحة

كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم . . ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخسروا الصفقة لأنهم أخذوا الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب فى الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة . . فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم . . يخاف من الظلم ويبتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن فى الدنيا مقاييس فى الثواب والعقاب . . وحتى لا ينتشر فى الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة . . وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا فى الدنيا . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى فى قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا . . فيأتى للمرابى الذى يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفقه . . ولذلك نحن نقول يارب إن القوم غرهم حلمك واستبطأوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمتجبرين فى الدنيا . . جعلها الله عبرة لمن لايعتبر بمنهج الله . فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده فى آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين . . وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمعه من كل مكان حلالا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء . . وفى آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء . . وتموت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها . . كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس . . ولذلك فهى تحدث على رؤوس الأشهاد . . يعرفها عدد كبير من الناس . . إما لأنها تنشر فى الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحى فيتناقلونها . . المهم أنها تكون مشهورة .

وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح . . ينتهى بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم . . أليس هذا خزيا ؟

قوله تعالى : « أن يكفروا بما أنزل اللهُ بغيا » . . البغى تجاوز الحد ، والله جعل لكل شىء حدا مَنْ تجاوزه بَغَى . . والحدود التى وضعها الله سبحانه هى أحكام . . ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهى. ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ولكن ما سبب بغيهم ؟ . . بغيهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتى إليه الرسالة . . وعلى العرب أن يكون الرسول منهم . . واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض . . وعندما جاءت التوراة والإنجيل يبشران برسول خاتم قالوا إنه منا . . الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار . . ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبى القادم وينصرونه . . ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم . . حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا ما دام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه . . لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلا لها . . وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة فى أمة غيرهم . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فاطر)

لقد اختبرهم الله فى رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا فى الآيات السابقة . . كذبوا فريقا من الأنبياء . ومن لم يكذبوه قتلوه . . لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها فى أمة غيرهم . . لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض . . ولذلك بغوا .

وقوله تعالى : « بغيًا أن ينزل اللهُ من فضله على من يشاءُ من عباده » . . ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل . . فضل من الله يختص به من يشاء . . والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويملكنا الأسباب . . فإننا لا نخرج عن مشيئته بل نخضع لها . . ونعرف أنه لا ذاتية في هذا الكون . . وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه . . فإن بطل العالم في لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية في هذه اللعبة . . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه . . ولأنه قد يصيبه أى عائق يجعله لا يصلح للبطولة . . وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم . . لأنها ليست ذاتية فيه ومَنْ وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاء . . ولذلك لابد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشرى متغير لا يدوم لأحد . . وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأننا في عالم أغيار . . ولابد لكل من علا أن ينزل . . فالكمال لله وحده . . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذن اليهود حسدوا رسول الله . . حسدوا نزول القرآن على العربِ . . والحق سبحانه يقول : « فباءوا بغضبٍ على غضب وللكافرين عذابٌ مهينٌ » . . والله جل جلاله يخبرنا أنه غضبُ عليهم مرتين .

الغضب الأول أنهم لم ينفذوا ما جاء في التوراة فغضب الله عليهم . . والغضب الثانى حين جاءهم رسول مذكور عندهم في التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به . . وكان المفروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم . . ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وقوله تعالى : « وللكافرين عذابٌ مهين » . . العذاب في القرآن الكريم وُصِفَ بأنه أليم . . ووُصِفَ بأنه عظيم ووُصِفَ بأنه مهين . . أليم أى شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد . . ولكن لنفرض أن الذى يعذب يتجلد . . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس . . يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل . . فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر في الدنيا . . ووقفوا أمام دين الله يحاربونه وتزعموا قومهم . . يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين . . ويكون هذا أكثر إيلاما للنفس من الألم . . تماما كما تأتى لرجل هو أقوى مَنْ في المنطقة يخافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض . . تكون في هذه الحالة قد أهنته أمام

الناس .. فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبر أو يتكبر عل واحد منهم .. ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾

(سورة الدخان)

ذلك هو العذاب المهين .



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أومروا بذلك فى التوراة . . فيقول جل جلاله : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ » أى إذا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك « وقالوا نؤمن بما أنزل علينا » أى نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أى بما نزل بعده .

ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ماعندهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به . . ولكنه جاء بالحق مصدقا لما معهم .

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة . . لأن القرآن يصدق ما جاء فى التوراة .

وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . . إن كفركم هذا وسلوكك ضد كل نبى جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدر رحب . . فقولوا لنا لِمَ قتلتم أنبياء الله ؟ . . ولذلك يقول الحق : « فَلِمَ تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبلُ » . . هل هناك فى كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . . كأن الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » . . إذا كان هذا صحيحا وانكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا مما أنزل إليكم وهى التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . . وطبعا لم يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . فهم كاذبون فى قولهم نؤمن بما أنزل

علينا .. لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء .. فكأنهم كفروا بما أنزل عليهم .. وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التى تخرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة .. وهنا لابد أن نتنبه الى قوله تعالى : « فلِمَ تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبلُ » .. قوله تعالى : « من قبلُ » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفى الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود فى أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام .. والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسل السابقين من بنى إسرائيل لن يجرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك قطع القرآن خط الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن ذلك كان عهدا وانتهى .. وأنهم لو تآمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تآمرهم ولن يكفوا عن بغيهم فى قتل الرسل والأنبياء .. فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة .. مرة وهو فى حيهم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر .. ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .

إذن فقوله تعالى « من قبل » معناها .. إن كنتم تفكرون فى التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم فى أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .

ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس فى نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم فى قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا فى محاولاتهم ، وفى الوقت نفسه كانت الآية تثبيتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تآمروا فلن يمكنهم الله من شىء .. وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » .. أى بما أنزل إليكم .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط .. أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم فى طبيعتهم الكفر والإلحاد .. فقال سبحانه : « ولقد جاءكم موسى بالبيناتِ » .. أى أن موسى عليه السلام أيده الله ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعبدون إلا الله .. فلقد شق لكم البحر ومررتم فيه وأنتم تنظرون وترون .. أى أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدثت أمامكم ورأيتموها .. ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله .. بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلها من دون الله وعبدتموه .. فكيف تدعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم .. لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهًا .

والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقض حجتهم فى أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم .. ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم .. فجاء بحكاية قتل الأنبياء .. ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون .. أما الحجة الثانية فهى إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم .. فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التى تحولت إلى حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذى شققناه لكم لتنجوا من قوم فرعون .. والقتيل الذى أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التى ذبحتموها .. آيات كثيرة ولكن بمجرد أن ترككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل .

إذن فقولكم نؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح .. فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم .. وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا .

وقوله تعالى : « ثم اتخذتم العجلَ من بعده وأنتم ظالمون » . . واتخاذ العجل فى ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرث أو للذبح لتأكل لحمه . . ولكن المعصية هى اتخاذ العجل معبودا . . وقوله تعالى : « إتخذتم العجل » . . أى أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل عبدتموه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم . . وذكر حكاية العجل هذه ليشعروا بذنبهم فى حق الله . . كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم يمر عليه وقت . . وكلما أردنا أن نؤنبه ذكرناه بما فعل . . وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » . . أى ظالمون فى إيمانكم . . ظالمون فى حق الله بكفركم به .



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

بعد أن ذكَّرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل .. وكان هذا نوعا من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر .. أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يذكِّرهم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم .. ولم يكن الجبل سيقع عليهم .. لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان .. ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا .. مثلهم كالطفل الذى وصف له الطبيب دواء مرا ليشفى .ولذلك فإن رفع الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج .. لا يقال إنه فعل ذلك إرغاما لكى يؤمنوا .. إنه إرغام المحب .. يريد الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سماوى فرفع فوقهم جبل الطور إظهارا لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله لهم وبهم آمنوا .. فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا .. تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره .. ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له قمة فى الحب والاشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح .. نقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها .. لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم ان يستمروا على الإيمان .. تماما كما يقال للأب إن الدواء مر لم يحقق الشفاء وطفلك مريض .. فيقول وماذا أفعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف .

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » .. هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله ؟ .. طبعا هو ميثاق الله .. ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : « ميثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفا فى العقد .. وماداموا قد أصبحوا طرفا أصبح ميثاقهم .. ولابد أن نؤمن أن رفع

جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال انهم أجبروا على ذلك . . هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور . . فلابد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعا فوق رءوسهم أينما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا . . فلو أنهم أجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم . . فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج . . ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى . . حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم . . وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر علهم يعودون إلى إيمانهم . . وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين . .

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله . . وليس فى هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلى المعصية . . ولكنها آية تدفع إلى الإيمان . . وقوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة) لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة . . والأخذ بقوة يدل على عشق الآخذ للمأخوذ . . وما دام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدى مطلوباته بقوة . . فالإنسان دائما عندما يأخذ شيئا لا يحبه فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : « واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » . . القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان . . هناك قول وفعل وعمل . . القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ . . والعمل أن يطابق القول الفعل . . هم : « قالوا سمعنا وعصينا » هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه . . ولكن (عصينا) على أى شىء معطوفة ؟ . . إنها ليست معطوفة على « سمعنا » . . ولكنها معطوفة على (قالوا) . . قالوا سمعنا فى القول وفى الفعل عصينا . . وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا فى الفعل . . فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا . . فتحسب أنهم قالوا الكلمتين . . لا . . هم قالوا سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا. والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أى مجرد سماع . . ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكأن عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : « وأشربوا فى قلوبهم العجل » . الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم . . فالحب أمر معنوى وليس أمرًا ماديًا لأنه غير محسوس . . وكان التعبير

يقتضى أن يقال وأشربوا حب العجل . . ولكن الذى يتكلم هو الله . . يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أنهم أشربوا العجل ذاته أى دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل فى هذا الحيز الضيق وهو القلب . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى الشيوع فى كل شىء بكلمة أُشْرِبُوا . . لأنها وصف لشرب الماء والماء يتغلغل فى كل الجسم . . والصورة تعرب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل حتى كأن العجل دخل فى قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء فى الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

ويقولُ الحق جل جلاله : « وأُشربوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم » . . كأن الكفر هو الذى أسقاهم العجل . . هم كفروا أولا . . وبكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وختم عليها . . وقوله تعالى : « قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » . . هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده . . قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ . . وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم . . مثل قوله تعالى :

﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ . . طبعا لا . . ولكنه أسلوب تهكم واستنكار . . والحق أن إيمانهم لا يأمرهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف)

هذا هو مايأمرهم به إيمانهم .. أن يؤمنوا بالنبى الأمى محمد عليه الصلاة والسلام .. والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله .. ولذلك عندما يحاولون خداع الله .. يتهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم : « بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » دليل على أنهم ليسوا مؤمنين .. ولكن لازال فى قلوبهم الشرك والكفر أو العجل الذى عبدوه .



﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود . . ويبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف ان هؤلاء اليهود . . لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا . . ويعرفون انهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا . . ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس ويبين كذبهم بالدليل القاطع . . فيقول : «قل إن كانت لكم الدار الآخرة» : «قل» موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى قل لهم يا محمد . . ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قد قالوا إن لهم : «الدار الآخرة عند الله خالصة».

الشيء الخالص هو الصافى بلا معكر أو شريك . أى الشيء الذى لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازعك فيه أحد . . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم:إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد . . فمادامت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم . . فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا . . ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة . . وليست هذه هى الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى . . وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

من الذى قال ؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ،

والنصارى قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . . كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل قولهم هذا لنا لغزا فى العقائد . . من الذى سيدخل الجنة وحده . . اليهود أم النصارى ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وهذا أصدق قول قالته اليهود وقالته النصارى بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شىء والنصارى ليسوا على شىء . . وكلاهما صادق فى مقولته عن الآخر . . فى الآية الكريمة التى نحن بصددها . . اليهود قالوا إن الدار الآخرة خالصة لهم . . سنصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتعجلون ويتمنون الموت . . فالمفروض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة لهم . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . . ولكنها أمانٍ كاذبة عند اليهود وعند النصارى . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة . . ولكن عدل الله يأبى ذلك . . كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب . . بل يدخلهم الجنة فى الآخرة . . وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة فى الآخرة لليهود وحدهم . . وهو قدكتب رحمته لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام . . وأبلغ اليهود والنصارى بذلك فى كتبهم . . وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾

(الآية ١٥٦ ومن الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

إذا كانت هذه هي الحقيقة الموجودة فى كتبهم .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يَدَّعِى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة ؟ ولكن الحق جل جلاله يفضح كذبهم ويؤكد لنا ان ما يقولونه هم أول من يعرف إنه كذب .



﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه .. والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية .. وضع قضية الإيمان كله فى يد اليهود .. بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا فى هذا الدين .. كيف ؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتى عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت .. نحن نتمنى الموت يا محمد.فادع لنا ربك يميتنا .. ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا ؟ ولو نفاقا .. ولو رياء ليهدموا هذا الدين .. ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخطر على بالهم .. أنظر إلى الإعجاز القرآنى فى قوله سبحانه : « ولن يتمنوه » .

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا فى أمر إختيارى لعدو يعادى الإسلام .. وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت .. وكان من الممكن أن يفطنوا لهذا التحدى .. ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله .. ولكن حتى هذه لم تخطر على بالهم ؛ لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم فى أمر اختيارى فهو يسلب من أعداء الدين تلك الخواطر التى يمكن أن يستخدموها فى هدم الدين .. فلا تخطر على بالهم أبدا مثلما تحداهم الله سبحانه من قبل فى قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا .. بدليل إستخدام حرف السين فى قوله : « سيقول » .. ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء .. ومع ذلك فقد قالوا .. ولو أن عقولهم تنبهت لسكتوا ولم يقولوا شيئا .. وكان فى ذلك تحد للقرآن

الكريم .. كانوا سيقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى : « سَيقولُ السفهاءُ من الناسِ » .. ولكن أحدا لم يقل شيئا فأين هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا ؟ وكان هذا يعتبر تحديا للقرآن الكريم فى أمر يملكون فيه حرية الاختيار .. ولكن لأن الله هو القائل والله هو الفاعل .. لم يخطر ذلك على بالهم أبدا ، وقالوا بالفعل .

فى الآية الكريمة التى نحن بصددها .. تحداهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه .. وكان الكلام المنطقى مادامت الدار الآخرة خالصة لهم .. والله تحداهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمنوه .. ليذهبوا إلى نعيم أبدى .. ولكن الحق حكم مسبقا ان ذلك لن يحدث منهم .. لماذا ؟ لأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون .. لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

إنظروا مثلا إلى العشرة المبشرين بالجنة .. عمار بن ياسر فى الحرب فى حنين .. كان ينشد وهو يستشهد .. الآن ألقى الأحبة محمدا وصحبه .. كان سعيدا لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد انه ذاهب إلى الجنة عند محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته .. هكذا تكون الثقة فى الجزاء والبشرى بالجنة .. وعبدالله بن رواحه كان يحارب وهو ينشد ويقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والإمام على رضى الله عنه يدخل معركة حنين ويرتدى غلالة ليس لها دروع .. لا ترد سهما ولا طعنة رمح .. حتى إن إبنه الحسن يقول له : يا أبى ليست هذه لباس حرب .. فيرد على كرم الله وجهه : يا بنى إن أباك لا يبالى أسقط على الموت أم سقط الموت عليه .. وسيدنا حذيفة بن اليمان ينشد وهو يحتضر .. حبيب جاء على ناقة لا ربح من ندم .. إذن الذين يثقون بآخرتهم يحبون الموت .

وفى غزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى .. فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم .. وكان فى يد الصحابى تمرات يمضغها .. فيستبطىء أن يبقى بعيدا عن الجنة حتى يأكل التمرات فيلقيها من يده ويدخل المعركة ويستشهد .

هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله فى الآخرة .. ولكن اليهود عندما تحداهم

القرآن الكريم بقوله لهم : « فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين » . . سكتوا ولم يجيبوا . . ولو تمنوا الموت لانقطع نفس الواحد منهم وهو يبلع ريقه فماتوا جميعا . . قد يقول قائل وهل التمنى باللسان ؟ ربما تمنوا بالقلب . . نقول ما هو التمنى ؟ نقول إن التمنى هو أن تقول لشيء محبوب عندك ليته يحدث.فهو قول . . وهب انه عمل قلبى فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لأطلع الله عليها وأماتهم فى الحال . . ولكن مادام الحق تبارك وتعالى قال : « ولن يتمنوْه أبدا » . . فهم لن يتمنوْه سواء كان باللسان أو بالقلب . . لأن الادعاء منهم بأن لهم الجنة عند الله خالصة أشبه بقولهم الذى يرويه لنا القرآن فى قوله سبحانه :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى : « بما قدمت أيديهم » . . أى ان أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت . . أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت . . ولذلك نسمع ان فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح . . فساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا انه ميت . . فالإنسان إذا مرض يأمل فى الشفاء ويستبعد الموت . . ولكن ساعة الغرغرة يتأكد الإنسان انه ميت ويستعرض حياته فى شريط عاجل . . فإن كان عمله صالحا تنبسط أساريره ويفرح لأنه سينعم فى الآخرة نعيما خالدا . . لانه فى هذه الساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار . . وتتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب . . فالذى أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة . . والذى عصى وفعل ما يغضب الله يستعرض شريط أعماله . . فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله . . وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله . . عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريره وتقبض روحه على هذه الهيئة . . فيقال فلان مات وهو أسود الوجه منقبض الأسارير .

إذن فالذى أساء فى دنياه لا يتمنى الموت أبدا . . أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تمنى الموت فقال :

(لَا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ ولا يدعو به من قَبلِ أن يَأْتِيَه إلا أن يكون قد وَثِقَ بعملِه)[1] .

نقول إن تمنى الموت المنهى عنه هو تمنى اليأس وتمنى الاحتجاج على المصائب . . يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله فى مصيبة حدثت له . . أو يتمناه احتجاجا على أقدار الله فى حياته . . هذا هو تمنى الموت المنهى عنه . . أما صاحب العمل الصالح فمستحب له أن يتمنى لقاء الله . . وإقرأ قوله تعالى فى آخر سورة يوسف :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا تتمنوا الموت جزعا مما يصيبكم من قدر الله . . ولكن إصبروا على قدر الله . . وقوله تعالى : « واللهُ عليمٌ بالظالمين » . . لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم . . هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه .



(١) رواه أحمد فى المسند عن أبى هريرة .

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فضح كذبهم .. فى انهم لا يمكن أن يتمنوا الموت لأنهم ظالمون .. وماداموا ظالمين فالموت أمر مخيف بالنسبة لهم .. وهم أحرص الناس على الحياة .. حتى إن حرصهم يفوق حرص الذين أشركوا .. فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد ان الدنيا هى الغاية .. واليهود أشد حرصا على الحياة من المشركين لانهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة .. لذلك كلما طالت حياتهم ظنوا انهم بعيدون عن عذاب الآخرة .. الحياة لا تجعلهم يواجهون العذاب ولذلك فهم يفرحون بها .

إن اليهود لا يبالون أن يعيشوا فى ذلة أو فى مسكنة .. أو أى نوع من أنواع الحياة .. المهم انهم يعيشون أى حياة .. ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين ؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هى كل همه وكل حياته .. لذلك يتمنى أن تطول حياته بأى ثمن وبأى شكل .. لأنه يعتقد ان بعد ذلك لا شيء .. ولا يعرف ان بعد ذلك العذاب .. واليهود أحرص من المشركين على حياتهم .

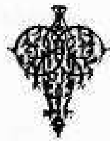
وقوله تعالى : « يودُ أحدُهم لو يعمَّرُ ألفَ سنة » .. الود هو الحب .. أى انهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر .. ولكن هب انه عاش ألف سنة أو حتى أكثر من ذلك .. أيزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا .. طول العمر لا يغير النهاية .

فمادامت النهاية هى الموت .يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف

السنين . . قوله تعالى : « يعمر » بفتح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مبنية للمجهول دائما . . ولا ينفع أن يقال يعمر بكسر الميم . . فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله . . فالله هو الذى يعطى العمر وهو الذى ينهيه . . وبما ان العمر ليس ملكا لإنسان فهو مبنى للمجهول . .

والعمر هو السن الذى يقطعه الإنسان بين ميلاده ووفاته . . ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمره الحياة . وعندما تنتهى يصبح الجسد أشلاء وخرابا . . قوله تعالى : « ألف سنة » . . لماذا ذكرت الألف ؟ لأنها هى نهاية ما كان العرب يعرفونه من الحساب . ولذلك فإن الرجل الذى أسر فى الحرب أخت كسرى فقالت كم تأخذ وتتركنى ؟ قال ألف درهم . . قالوا له بكم فديتها ؟ قال بألف . . قالوا لو طلبت أكثر من ألف لكانوا أعطوك . . قال والله لو عرفت شيئا فوق الألف لقلته . . فالألف كانت نهاية العدد عند العرب . . ولذلك كانوا يقولون ألف ألف ولم يقولوا مليونا . .

وقوله تعالى : « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » . . معناها انه لو عاش ألف سنة أو أكثر فلن يهرب من العذاب . وقوله تعالى : « والله بصير بما يعملون » . . أى يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سواء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل .



﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن اليهود لم يقتلوا الأنبياء ويحرفوا التوراة ويشتروا بآيات الله جاه الدنيا فقط .. ولكنهم عادوا الملائكة أيضا .. بل إنهم أضمروا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله الذى نزل بوحى القرآن وهو جبريل عليه السلام .. وانهم قالوا جبريل عدو لنا .

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولقد جلس ابن جوريا أحد أحبار اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له من الذى ينزل عليك بالوحى ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل .. فقال اليهودى لو كان غيره لآمنا بك .. جبريل عدونا لأنه ينزل دائما بالخسف والعذاب .. ولكن ميكائيل ينزل بالرحمة والغيث والخصب .. وأيضا هو عدوهم لأنهم اعتقدوا أن بيت المقدس سيخربه رجل اسمه بختنصر، فأرسل اليهود إليه من يقتله .. فلقى اليهودى غلاما صغيرا وسأله الغلام ماذا تريد ؟ قال إنى أريد أن أقتل بختنصر لأنه عندنا فى التوراة هو الذى سيخرب بيت المقدس .. فقال الغلام إن يكن مقدرا أن يخرب هذا الرجل بيت المقدس فلن تقدر عليه .. لأن المقدر نافذ سواء رضينا أم لم نرض .. وإن لم يكن مقدرا فلماذا تقتله ؟ أى ان الطفل قال له إذا كان الله قد قضى فى الكتاب أن بختنصر سيخرب بيت المقدس .. فلا أحد يستطيع أن يمنع قضاء الله .. ولن تقدر عليه لتقتله وتمنع تخريب بيت المقدس على يديه .. وإن كان هذا غير صحيح فلماذا تقتل نفسا بغير ذنب .. فعاد اليهودى دون أن يقتل بختنصر .. وعندما رجع إلى قومه قالوا له إن جبريل هو الذى تمثل لك فى صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض فى أعلى المدينة . . وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . . وظن اليهود ان مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم . . فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك . . ففهم عمر مرادهم فقال والله ما جالستكم حبا فيكم . . ولكنى أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عنه ما فى كتابكم . . فقالوا له ومن يخبر محمدا بأخبارنا وأسرارنا ؟ فقال عمر إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم . . قالوا هو عدونا . . فقال عمر كيف منزلته من الله ؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله وميكائيل يجلس عن يسار الله . . فقال عمر مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدوًا للآخر لأنهما عند الله فى منزلة واحدة . . فمن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله . . فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية .

إن عداوتهم لجبريل عليه السلام تؤكد ماديتهم . . فهم يقيسون الأمر على البشر . . إن الذى يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتنافسان على المنزلة عنده . . ولكن هذا فى دنيا البشر . . ولكن عند الملائكة لا شىء من هذا . . الله عنده ما يجعله يعطى لمن يريد المنزلة العالية دون أن ينقص من الآخر . . ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . . وما ينزل به جبريل حق وما ينزل به ميكائيل حق . . والحق لا يخاصم الحق . . وقال لهم عمر أنتم أشدّ كفرا من الحمير . . ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكد الرسول يراه حتى قال له وافقك ربك يا عمر . . وتنزل قول الله تبارك وتعالى : « قل مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » فقال عمر يا رسول الله . . إنى بعد ذلك فى إيمانى لأصلب من الجبل .

إذن فقولهم ميكائيل حبيبنا وجبريل عدونا من الماديات ، والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم . . إنهم يُعَادُون جبريل لأنه نزل على قلبك بإذن الله . . ومادام نزل من عند الله على قلبك . . فلا شأن لهم بهذا . . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . . وهو هدى وبشرى للمؤمنين . . فأى عنصر من هذه العناصر تنكرونه على جبريل . . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى .

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحكم . . فقال إن العداوة للرسل . . مثل العداوة للملائكة . . مثل العداوة لجبريل وميكائيل . . مثل العداوة لله.ولقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالملائكة ككل . . ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم .

إن المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية واحدة . . فمن كان عدوا للملائكة وجبريل وميكائيل ورسل الله . . فهو أولا وأخيرا عدو لله . . لأنه لا انقسام بينهم فكلهم دائرون حول الحق . . والحق الواحد لا عدوان فيه . . وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات.وهذا يحدث في أمور الدنيا .

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل . . ومن يعادى واحدا من هؤلاء يعاديهم جميعا وهو عدو لله سبحانه . . واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به . . وأعداء الرسل لأنهم كذبوهم وقتلوا بعضهم .

وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى وحدة الحق في الدين . . مصدره هو الله جل جلاله . . ورسوله من الملائكة هو جبريل . . ورسله من البشر هم الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله . . وميكائيل ينزل بالخير والخصب لأن الإيمان أصل وجود الحياة . . فمن كان عدوا للملائكة والرسل وجبريل وميكائيل فهو كافر . . لأن الآية لم تقل إن العداوة لهؤلاء هي مجرد عداوة . . وإنما حَكَمَ الله عليهم بأنهم كافرون . . الله سبحانه وتعالى لم يخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعا ويعرفوا ان اليهود كافرون .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

إنتقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى تأكيد صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. وان الآيات فيها واضحة بحيث إن كل إنسان يعقل ويريد الإيمان يؤمن بها .. ولكن الذين يريدون الفسق والفجور .. هم هؤلاء الذين لا يؤمنون .. ما معنى الآيات البينات ؟ إن الآية هى الأمر العجيب .. وهو عجيب لأنه معجز .. والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله .. وهى كذلك الآيات فى القرآن الكريم .. وبينات معناها أنها أمور واضحة لايختلف عليها ولا تحتاج إلى بيان : « وما يكفر بها إلا الفاسقون » .. والفسق هو الخروج عن الطاعة وهى مأخوذة من الرطبة .. البلح قبل أن يصبح رطبا لا تستطيع أن تنزع قشرته ولكن عندما يصبح رطبة تجد أن القشرة تبتعد عن الثمرة فيقال فسقت الرطبة .. ولذلك من يخرج عن منهج الله يقال له فاسق .

والمعنى ان الآيات التى أيد بها اللهُ سبحانه وتعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام ظاهرة أمام الكفار ليست محتاجة إلى دليل .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لم يقرأ كلمة فى حياته .. يأتى بهذا القرآن المعجز لفظا ومعنى .. هذه معجزة ظاهره لا تحتاج إلى دليل .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا تغريه الدنيا كلها .. ليترك هذا الدين مهما أعطوه .. دليل على انه صاحب مبدأ ورسالة من السماء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يخبر بقرآن موحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنوات .. ويخبر الكفار والمنافقين بما فى قلوبهم ويفضحهم . ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون .. وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كل أنواع الإعجاز علميا وفلكيا وكونيا .. كل هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار .. كلها آيات واضحة لا يمكن أن

يكفر بها إلا الذى يريد أن يخرج عن منهج الله ، ويفعل ما تهواه نفسه . .

إن الإعجاز فى الكون وفى القرآن وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد . . لنعرف ان هذا القرآن هو من عند الله ملىء بالمعجزات لغة وعلما . . وإنه سيظل معجزة لكل جيل له عطاء جديد .



﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الاسلامى ، وكتابه القرآن فيه من الآيات الواضحة مايجعل الإيمان به لايحتاج إلا إلى وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذى يقفه اليهود من الاسلام منافيا لكل العهود التى أخذت عليهم ، منافيا للإيمان الفطرى ، ومنافيا لأنهم عاهدوا الله ألا يكتموا ماجاء فى التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لعهدهم أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب منهم موسى أن يؤمنوا بالإسلام عندما يأتى الرسول ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن موسى عليه السلام الذى أُخذ عليه الميثاق قد أبلغه إلى بنى إسرائيل ، وأن بنى إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق جيدًا عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكنهم نقضوه كما نقضوا كثيرا من المواثيق . . منها عهدهم بعدم العمل فى السبت ، وكيف تحايلوا على أمر الله بأن صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج وهذا تحايل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم فى الإيمان بالله إلها واحدًا أحدا ، ثم عبدوا

العجل.. وكان قولهم لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه زرع .. لأنهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التى كانت تأتيهم من السماء .. قالوا لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » .. وغير ذلك الكثير من المواثيق بالنسبة للحرب والأسرى والعبادة ، حتى عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل فى قلوبهم الرعب وظنوا أنه واقع عليهم ، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة .. لأن الله تبارك وتعالى يقول : « وظنوا أنه واقع بهم » .. وبمجرد ابتعادهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق .

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وذلك فى غزوة الخندق .. وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا جيوش المؤمنين من الخلف .

قوله تعالى « نبذه فريق منهم » قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتمال .. لأن منهم من صان المواثيق .. ومنهم من صدق ما عاهد الله عليه .. ومنهم مثلا من كان يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .

إذن فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود .. لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد .. ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان ، حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد ، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « بل أكثرهم لا يؤمنون » .. أى أن الفريق الناقض للعهد .. الناقض للإيمان هم الأكثرية من بنى إسرائيل .



﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن اليهود الذين نقضوا المواثيق الخاصة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوها وهم يعلمون . . قال الله سبحانه : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » . . أى أن ما جاء فى القرآن مصدق لما جاء فى التوراة . . لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله . . ولكن التوراة حرفوها وكتموا بعضها وغيروا وبدلوا فيها فأخفوا ما يريدون إخفاءه . . لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه ويؤكد ما لم يخفوه ولم يتلاعبوا فيه .

وقوله تعالى : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » . . قلنا إن هناك كتابا نبذوه أولا وهو التوراة . . ولما جاءهم الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم نبذوه هو الآخر وراء ظهورهم . . ما معنى نبذه ؟ . . المعنى طرحه بعيدا عنه . . إذن ما فى كتابهم من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم نبذوه بعيدا . . ومن التبشير بمجىء رسول الله عليه الصلاة والسلام نبذوه هو الآخر . . لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون أتى زمن نبى سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم .

وقوله تعالى : « نبذ فريقٌ » . . يعنى نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب . . بدليل أن ابن سلام وهو أحد أحبار اليهود صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به . . وكعب الأحبار مخيريق أسلم . . فلو أن القرآن عمم ولم يقل فريق لقيل إنه غير منصف لهؤلاء الذين آمنوا .

وقوله تعالى : « وراء ظهورهم » . . النبذ قد يكون أمامك . . وكونه أمامك

فأنت تراه دائما ، وربما يغريك بالإقبال عليه ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم أى جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماما ولا يلتفتوا إليه .

وقوله تعالى : « كأنهم لا يعلمون » . . أى يتظاهرون بأنهم لا يعلمون ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه . . وقوله تعالى : « كأنهم » . . دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين . . لأنهم لو كانوا لا يعلمون . . لقال الحق سبحانه : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » وهم لا يعلمون . . إذن هم يعلمون يقينا ولكنهم تظاهروا بعدم العلم . . ولابد أن نتنبه إلى أن نبذ يمكن أن يأتى مقابلها فتقول نبذ كذا واتبع كذا . . وهم نبذوا كتاب الله ولكن ماذا اتبعوا ؟



﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝١٠٢﴾

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين .. لأن النبذ يقابله الإتباع .. واتبعوا يعنى اقتدوا وجعلوا طريقهم فى الاهتداء هو ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان .. وكان السياق يقتضى أن يقال ما تلته الشياطين على ملك سليمان .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يحددوا المسألة بزمن معين .

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلته الشياطين على ملك سليمان ، ونظرا لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكأنهم فعلوا .

الحق سبحانه يقول : « واتبعوا ما تتلو الشياطينُ » ولكن الشياطين تلت وانتهت .. واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه .. الشياطين هم العصاة من الجن .. والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١﴾

(سورة الجن)

وقوله سبحانه عن الجن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الجن)

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر . . والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي . . والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله . . وكل متمرد على منهج الله نسميه شيطانا . . سواء كان من الجن أو من الإنس . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله . . قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » . . يعنى ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان . .

ولكن ما هى قصة ملك سليمان والشياطين ؟ . . الشياطين كانوا قبل مجىء رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد مكنهم من قدرة الاستماع إلى أوامر السماء وهى نازلة إلى الأرض . . وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلى أئمة الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات . . فبعضها يكون على حق والأكثر على باطل . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الإنعام)

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إمتنع ذلك كله ، حتى لا يضع الشياطين خرافاتهم فى منهج

رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى القرآن . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الشياطين كانت لها مقاعد فى السماء تقعد فيها لتستمع الى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه . . ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب ـ وهى النجوم المحترقة ـ فعندما تحاول الشياطين الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم . . ولذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابا يحترق فى السماء بسرعة يقولون : سهم الله فى عدو الدين . . كأن المسألة فى أذهان الناس وجعلتهم يقولون : سهم الله فى عدو الدين . . الذى هو الشيطان .

واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الأمر إختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع . . ولذلك لم يعرفوا هل الذى ينزل من السماء خير أو شر ؟ . . أنظر الى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء » . . كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها . . فالله تبارك وتعالى فى هذه الحالة ـ وهى اتباع اليهود لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والتعاويذ والأشياء التى تضر ولا تفيد ـ أراد أن يبرىء سليمان من هذا كله . . فقال جل جلاله : « وما كفر سليمان » . .

وكان المنطق يقتضى أن يخص الله سبحانه وتعالى حكاية الشياطين قبل أن يبرىء سليمان من الكفر الذى أرادوا أن ينشروه . . ولكن الله أراد أن ينفى تهمة الكفر عن

سليمان ويثبتها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر .. وكيف كفر الشياطينُ وبماذا أغروا أتباعهم بالكفر ؟ .. يقول الله سبحانه وتعالى : « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » .

ما قصة كل هذا ؟ .. اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلو الشياطين أيام سليمان ، وأرادوا أن ينسبوا كل شىء فى عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهموا الناس أن منهج سليمان هو من السحر ومن الشياطين . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرىء سليمان من هذه الكذبة .. سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ص)

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك .. حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفرًا بالسحر وكتبه . فأخذ سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه .. وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على مخبأ كتب السحر أخرجتها وأذاعتها بين الناس .. وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هى التى كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن ، وأنها كانت منهجه ، وأشاعوها بين الناس .. فأراد الله سبحانه

وتعالى أن يبرىء سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر ونشر الكفر . . قال جل جلاله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » .

ما هو السحر ؟ . . الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع النهار . . حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح . . هكذا السحر شيء يخيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع . . إنه قائم على شيئين . . سحر العين لترى ما ليس واقعا على أنه حقيقة . . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى في سحرة فرعون :

﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعا وما ليس حقيقة . . وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة الساحر . . ولذلك فالسحر تخيل وليس حقيقة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن ما دام الله سبحانه وتعالى قال : « يخيل إليه » . . فهي لا تسعى . . إذن فالسحر تخيل . . وما الدليل على أن السحر تخيل ؟ . . الدليل هو المواجهة التي حدثت بين موسى وسحرة فرعون . . ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عينيه لا يسحرهما أحد . . حينما جاء السحرة وموسى . . إقرأ قوله سبحانه :

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة طه)

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خُيِّل للموجودين إنها حيات تسعى .. ولكن هل خيل للسحرة إنها حيات ؟ طبعا لا .. لأن أحدا لم يسحر أعين السحرة .. ولذلك ظل ما ألقوه فى أعينهم حبالا وعِصِيًا .. حين ألقى موسى عصاه وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة طه)

هنا تظهر حقيقة السحر .. لماذا سجد السحرة ؟ لأن حبالهم وعصيهم ظلت كما هى حبالا وعصيا .. ذلك ان أحدا لم يسحر أعينهم .. ولكن عندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية .. فعرفوا ان هذا ليس سحرا ولكنها معجزة من الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا موسى قد تحولت إلى حية .. ولكن حبالهم وعصيهم ظلت كما هى وإن كان قد خيل إلى الناس أنها تحولت إلى حيات .

إذن فالسحر تخيل والساحر يرى الشيء على حقيقته لذلك فإنه لا يخاف .. بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون ان الشيء قد تغيرت طبيعته .. ولذلك سجد السحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحرا .. ولكنها شيء فوق طاقة البشر .

السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأى صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه فى صورة مادية .. فإذا تشكل فى صورة إنسان رأيناه إنسانا ، وإذا تشكل فى صورة حيوان رأيناه حيوانا ، وفى هذه الحالة تحكمه الصورة .. فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل فى صورة حيوان ودهمته بسيارتك مات ، ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها .. وهذا هو السر فى إنه لا يبقى فى تشكله إلا لمحة ثم يختفى فى ثوان .. لماذا ؟ لانه يخشى ممن يراه فى هذه الصورة أن يقتله خصوصا ان قانون التشكل يحكمه .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له الشيطان فى صورة إنسان قال :

(ولقد هممت أن أربطه فى سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة ولكنى تذكرت قول أخى سليمان : « رب هب لى مُلكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » . فتركته) الحديث لم يُخَرَّجْ .

ومن رحمة الله بنا انه اذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه . . وإلا لكانوا فزعونا وجعلوا حياتنا جحيما . . فالله سبحانه وتعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطغى أحد على أحد . . بمعنى أننا لو كنا فى قرية وكلنا لا نملك سلاحا وجد التوازن . . فإذا ملك أحدنا سلاحا وادعى انه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استغل السلاح ليسيطر على أهل القرية ويفرض عليهم إتاوات وغير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وهذا مالا يقبله الله .

السحر يؤدى لاختلال التوازن فى الكون . . لأن الساحر يستعين بقوة أعلى فى عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك . . الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن . . يدعى أنه يفعل ذلك لينشر الخير فى الكون ، ولكنها ليست حقيقة . . لأن هذا يغريه على الطغيان . . والذى يخل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس . . إنسان يستطيع أن يطغى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله إختل التوازن فى المجتمع . والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون . . ولذلك يقول لنا لا تطغوا وتستعينوا بالشياطين فى الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون .

ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع فى الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيه . . ولا يحسب انه هو الذى حقق لنفسه العلو فى الأرض . . ولقد كانت معصية إبليس فى انه رفض أن يسجد لآدم . إنه قال :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصى ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا الأعلى فى العنصر ـ وهو الشيطان ـ يخضع للأدنى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله فى عنصر من العناصر ، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم . . ولكنه بمشيئة الله

سبحانه وتعالى . . فأرسل الملكين ببابل هاروت وماروت ليعلما الناس السحر . الذى يخضع الأعلى عنصراً للأدنى .

واقرأ قوله سبحانه : « وما كفر سليمانُ ولكنِ الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحر وما أنزل على الملكين ببابَل هاروتَ وماروتَ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » . . فالله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلما الناس السحر . . ولقد رويت عن هذين الملكين قصص كثيرة . . ولكن مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلما الناس السحر . . فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين . . وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة . . أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظروا ماذا يفعلان ؟ فاختاروا هاروت وماروت . . وعندما نزلا إلى الأرض فتنتهما امرأة فارتكبا الكبائر . هذه القصة برغم وجودها فى بعض كتب التفسير ليست صحيحة . . لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله . . ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدى المخلوق كل ما كُلِّف به من الله جل جلاله . . وهذان الملكان كلفا بأن يعلما الناس السحر . . وأن يحذرا بأن السحر فتنة تؤدى إلى الكفر وقد فعلا ذلك . . والفتنة هى الإمتحان . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » . . إذن فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنة تؤدى إلى الكفر . . وإنها لا تنفع إلا فى الشر وفى التفريق بين الزوج وزوجه . . وإن ضررها لا يقع إلا بإذن الله . . فليس هناك أى قوى فى هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

ثم يأتى قول الحق تبارك وتعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا

يعلمون » . . ان الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع . . فهو لا يجلب نفعا أبدا حتى لمن يشتغل به . فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد فى رزقه على غيره من البشر فهم أفضل منه . . وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يغريه بأنه يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالا ، وتجد شكله غير طبيعى وحياته غير مستقرة وأولاده منحرفين . وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرا لا يملك شيئا وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة فى آخر حياته .

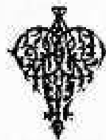
إذن فالسحر لا يأتى إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله فى آخر حياة الساحر . . والذى يشتغل بالسحر يموت كافرا ولا يكون له فى الآخرة إلا النار . . ولذلك قد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك . . لأنهم لم يأخذوا شيئا إلا الضر . . ولم يفعلوا شيئا إلا التفريق بين الناس . . وهم لا يستطيعون أن يضروا أحدا إلا بإذن الله .

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاتها . . فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر . . ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه . . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه فى الشر . . كما ان الشياطين التى يستعين بها الساحر غالبا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرا عليه وعلى أولاده . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الذى يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانا من العذاب . .



﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة .. لقد بين لهم أن السحر كفر ، وان من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد فى النار .. وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم إمتيازا فى الضرر والإيذاء .. لكان ذلك خيرا لهم عند الله تبارك وتعالى .. لأن الملكين اللذين نزلا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو انهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون فى الكفر ، واتقوا الله لكان ذلك ثوابا لهم عند الله وخيراً فى الدنيا والآخرة .. ولكن ما هى المثوبة ؟ هى الثواب على العمل الصالح .. يقابلها العقوبة وهى العقاب على العمل السيىء .. وهى مشتقة من ثاب أى رجع .. ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام فى الصلاة المثوب .. لأن الإمام يقول الله أكبر فيرددها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلهم صوت الإمام .. وهذا إسمه التثويب .. أى إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام .. وكما قلنا فهى مأخوذة من ثاب أى رجع .. لأن الإنسان عندما يعمل صالحا يرجع عليه عمله الصالح بالخير .. فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود .. ولكنه لابد أن يعود عليك بالخير .

وإذا نظرنا إلى دقة التعبير القرآنى : « لمثوبة من عند الله خير » . نجد أن كلمة مثوبة مأخوذة من نفس معنى كلمة ثوب وجمعه ثياب .. وكان الناس قديما يأخذون أصواف الأغنام ليصنعوا منها ملابسهم .. فيأتى الرجل بما عنده من غنم ويجز صوفها

ثم يعطيه لآخر ليغزله وينسجه ثوبا ويعيده إلى صاحبه .. فكأن ما أرسله من الصوف رد إليه كثوب .. ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك لتنتفع به نفعا عاليا .. وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالنفع العالى .

إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علمنا أن الثوب لستر العورة .. والعمل الصالح يستر الأمراض المعنوية والنفسية فى الإنسان .. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فكأن هناك لباسين أحدهما لستر العورة .. والثانى لستر الإنسان من العذاب .. ولباس التقوى خير من لباس ستر العورة .. قوله تعالى : « لمثوبة من عند الله خير » .. انظر إلى المثوبة التى تأتى من عند الله .. إذا كان الثوب يأتيك من عند من صنعه جميلا مزركشا وله ألوان مبهجة .. إذا كان هذا ما يصنعه لك بشر فما بالك بالثواب الذى يأتيك من عند الله . إنه قمة الجمال . فالله هو القادر على أن يرد الثواب بقدراته سبحانه فيكون الرد عاليا وعاليا جدا ، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات .
على أننا لابد أن نتنبه الى قول الله تعالى : « ولو أنهم آمنوا واتقوا » قلنا معنى اتقوا انهم جعلوا بينهم وبين صفات الجلال فى الله وقاية .. ولذلك قلنا إن بعض الناس يتساءل .. كيف يقول الله تبارك وتعالى : « إتقوا الله » .. ويقول جل جلاله : « إتقوا النار » .. نقول إن معنى اتقوا الله أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية : « واتقوا النار » .. أى اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية .. لأن النار من متعلقات صفات الجلال .. لذلك فإن قوله : « اتقوا الله » .. تساوى : « اتقوا النار » .. والحق تبارك وتعالى حينما قال : « اتقوا » أطلقها عامة .. والحذف هنا المراد به التعميم .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن السحرة لو آمنوا بأن تعلم السحر فتنة تؤدى إلى الكفر .. واتقوا الله وخافوا عذابه فى الآخرة لكان ذلك خيراً لهم .. لذلك قال جل جلاله : « لمثوبة من عند الله خير » ..

وساعة تسمع كلمة خير تأتى إلى الذهن كلمة شر .. لأن الخير يقابله الشر .. ولكن فى بعض الأحيان كلمة خير لايقابلها شر . ولكن يقابلها خير أقل . وكلمة

خير هى الوحيدة فى اللغة العربية التى يساوى الإسم فيها أفعل التفضيل .. فأنت تقول هذا فاضل وهذا مفضول عليه .. كلمة خير إسم تفضيل فيقال ذلك خير من كذا .. أى واحد منهما يعطى أكثر من الآخر .. وكلمة خير إذا لم يأت مقابلها أى خير من كذا يكون مقابلها شر .. فإذا قلت فلان خير من فلان .. فكلاهما إشترك فى الخير ولكن بدرجة مختلفة .. والخير هو ما يأتى لك بالنفع .. ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس .. واحد ينظر إلى النفع العاجل وآخر ينظر إلى النفع الآجل .. وفى ظاهر الأمر كل منهما أراد خيرا .

وإذا أردنا أن نقرب ذلك إلى الأذهان فلنقل إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ مبكراً ليذهب إلى مدرسته والثانى ينام حتى الضحى ، ويخرج من البيت ليجلس على المقهى .. الأول يحب الخير لنفسه والثانى يحب الخير لنفسه والخلاف فى تقييم الخير .. الكسول يحب الخير العاجل فيعطى نفسه حظها من النوم والترفيه وعدم العمل .. والمجتهد يحب الخير الآجل لنفسه لذلك يتعب ويشقى سنوات الدراسة حتى يرتاح بعد ذلك ويحقق مستقبلا مرموقا .

الفلاح الذى يزرع ويذهب إلى حقله فى الصباح الباكر ويروى ويبذر الحب ويشقى ، يأتيه فى آخر العام محصول وافر وخير كثير .. والفلاح الذى يجلس على المقهى طول النهار أعطى نفسه خير الراحة ، ولكن ساعة الحصاد يحصد الندم .

إذن كل الناس يحبون الخير ولكن نظرتهم ومقاييسهم تختلف .. فمنهم من يريد متعة اليوم ، ومنهم من يعمل لأجل متعة الغد .. والله تبارك وتعالى حين يأمرنا بالخير .. قد يكون الخير متعبا للجسد والنفس .. ولكن النهاية متاع أبدى فى جنة الخلد . إذن فالخير الحقيقى هو ما جاء به الشرع . لماذا ؟ لأن الخير هو ما ليس بعده بعد .. فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج فى الجامعة .. ثم تصبح فى أعلى المناصب ثم تموت ثم تبعث ثم تدخل الجنة .. وبعدها لا شىء إلا الخلود فى النعيم .

قوله تعالى : « لو كانوا يعلمون » .. الله ينفى عنهم العلم بينما فى الآية السابقة أثبت لهم العلم فى قوله تعالى : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » .. نقول إن العلم الذى لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئا ..

لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه . . واقرأ قول الشاعر :

رُزِقُوا وما رُزِقُوا سَماحَ يدٍ
فكأنهم رُزِقُوا وما رُزِقُوا
خُلِقُوا وما خُلِقُوا لمكرُمَةٍ
فكأنهم خُلِقُوا وما خُلِقُوا

فكأن العلم لم يثبت لك لأنك لم تنتفع به . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

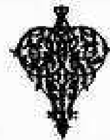
(من الآية ٦ سورة الروم)

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . .) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقى . . وأثبت لهم العلم الدنيوى الظاهر . . وقوله جل جلاله :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

أى إنهم حملوا التوراة علما ولكنهم لم يحملوها منهجا وعملا . . وهؤلاء السحرة علموا أنّ مَنْ يمارس السحر يكفر . . ومع ذلك لم يعملوا بما عملوا .



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ ١٠٤

هذا نداء للمؤمنين .. لأن الآية الكريمة تبدأ : « يا أيها الذين آمنوا » .. وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف .. فالله لا يكلف كافرا أو غير مؤمن .. ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا .. فمادام العبد قد آمن فقد أصبحت مسئولية حركته فى الحياة عند ربه .. ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة .. أما الكافر فلا يكلفه الله بشىء .

إذن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أمر لمن آمن بالله ورضي به إلها ومشرعا .. قوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نداء للمؤمنين وقوله : « لا تقولوا راعنا » .. نهى .. وكأن راعنا كانت مقولة عندهم يريد الله أن ينهاهم عنها .. والإيمان يلزمهم أن يستمعوا إلى نهى الله .

ما معنى راعنا ؟ نحن نقول فى لغتنا الدارجة (راعينا) .. يعنى احفظنا وراقبنا وخذ بيدنا وكلها مأخوذة من مادة الرعاية والراعى . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).(١)

وأصل المادة مأخوذة من راعى الغنم .. لأن راعى الغنم لابد أن يتجه بها إلى الأماكن التى فيها العشب والماء .. أى إلى أماكن الرعى .. وأن يكون حارسا عليها حتى لا تشرد واحدة أو تضل فتفتك بها ذئاب الصحارى .. وأن يوفر لها الراحة حتى

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

لا تتعب وتنفق فى الطريق . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كنتُ أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة).[1]

ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا ؟ إن عند اليهود فى العبرانية والسريانية كلمة راعنا ومعناها الرعونة . . ولذلك كانوا إذا سمعوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة راعنا . . اتخذوها وسيلة للسباب بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمسلمون لا يدرون شيئا . . لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتركوا هذه الكلمة . . حتى لا يجد اليهود وسيلة لستر سبابهم ، وأمرهم بأن يقولوا :انظرنا .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : « واسمعوا » . . والله هنا يشير إلى الفرق بين اليهود والمؤمنين . . فاليهود قالوا سمعنا وعصينا ، ولكن الله يقول للمؤمنين إسمعوا سماع طاعة وسماع تنفيذ .

سعد بن معاذ سمع واحدا من اليهود يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ راعنا ـ وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم ـ فلما سمع ما قاله فهم مراده . فذهب إلى اليهودى وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عنقك . . وقال اليهودى أو لستم تقولونها لنبيكم ؟ أهى حرام علينا وحلال لكم ؟ فنزلت الآية الكريمة تقول :«لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » . . ولو تأملنا كلمة (راعنا) وكلمة (انظرنا) لوجدنا المعنى واحدا . . ولكن (انظرنا) تؤدى المعنى وليس لها نظير فى لغة اليهود التى تعنى الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقوله تعالى : « وللكافرين عذاب أليم » . . أى من يقولون راعنا إساءةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم عذاب إليم .



(١) رواه البخارى .

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين العداوة التى يكنها لهم أهل الكتاب من اليهود والمشركين .. الذين كفروا لأنهم رفضوا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فيلفتهم إلى أن اليهود والمشركين يكرهون الخير للمؤمنين .. فتشككوا فى كل أمر يأتى منهم ، واعلموا أنهم لا يريدون لكم خيرا .. قوله تعالى : « ما يود » .. أى ما يحب ، والود معناه ميل القلب إلى من يحبه .. والود يختلف عن المعروف .. أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب .. ولكنك لا تود إلا من تحب .. لذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليقول عن الوالدين :

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

يقول بعض المستشرقين إن هناك تناقضا بين الآيتين .. كيف أن الله سبحانه وتعالى يقول : لا توادوا من يحارب الله ورسوله .. ثم يأتى ويقول إذا حاول أبواك أن

يجعلاك تشرك بالله فصاحبهما فى الدنيا معروفا . . وطبعا الوالدان اللذان يحاولان دفع ابنهما إلى الكفر إنما يحاربان الله ورسوله . . كيف يتم هذا التناقض ؟.

نقول إنكم لم تفهموا المعنى . . إن الإنسان يصنع المعروف فيمن يحب ومن لا يحب كما قلنا . . فقد تجد إنسانا فى ضيق وتعطيه مبلغا من المال كمعروف . . دون أن يكون بينك وبينه أى صلة . . أما الود فلا يكون إلا مع من تحب .

إذن : « ما يود » معناها حب القلب . . أى أن قلوب اليهود والنصارى والمشركين لا تحب لكم الخير . . إنهم يكرهون أن ينزل عليكم خير من ربكم . . بل هم فى الحقيقة لا يريدون أن ينزل عليكم من ربكم أى شىء مما يسمى خيرا . . والخير هو وحى الله ومنهجه ونبوة رسول صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : « من خير » . . أى من أى شىء مما يسمى خير . . فأنت حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالا يقول لك ما عندى مال . . أى لا أملك مالا ، ولكنه قد يملك جنيها أو جنيهين . . ولا يعتبر هذا مالا يمكن أن يوفى بما تريده . . وتذهب إلى رجل آخر لنفس الغرض تقول أريد مالا . . يقول لك ما عندى من مال . . أى ليس عندى ولا قرش واحد ، ما عندى أى مبلغ مما يقال له مال حتى ولو كان عدة قروش . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكفار والمشركين . . مشتركون فى كراهيتهم للمؤمنين . . حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أى شىء من ربكم مما يطلق عليه خير .

وقوله تعالى : « من ربكم » . . تدل على المصدر الذى يأتى منه الخير من الله . . فكأنهم لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خير من الله . . وهو المنهج والرسالة . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله يختص برحمته من يشاء » . . أى أن الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيهم . . والله ينزل الخير لمن يشاء . . والله قد قسم بين الناس أمور حياتهم الدنيوية . . فكيف يطلب الكافرون أن يخضع الله منهجه لإرادتهم ؟ واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ
رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ

﴿ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

اعترض الكفار على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لو نزل على رجل من القريتين عظيم .. فيرد عليهم الله سبحانه وتعالى .. أنتم لا تقسمون رحمة الله ولكن الله يقسم بينكم حياتكم فى الدنيا .

الحق تبارك وتعالى فى الآية التى نحن بصددها يقول : « والله يختص برحمته من يشاء » .. ساعة تقرأ كلمة يختص تفهم أن شيئا خصص لشىء دون غيره .. يعنى أنى خصصت فلانا بهذا الشىء : « والله يختص برحمته من يشاء » .. أى يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدى مهمته أو ينزل رحمته على من يشاء ، فليس لهؤلاء الكفار أن يتحكموا فى مشيئة الله ، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا يعطيهم حق التحكم فى رحمة الله .. ولذلك أراد الله إن يرد عليهم بأن هذا الدين سينتشر ويزداد المؤمنون به .. وسيفتح الله به أقطارا ودولا .. وسيدخل الناس فيه أفواجا وسيظهره على الدين كله .

ولو تأملنا أسباب انتصار أى عدو على من يعاديه لوجدنا إنها إما اسباب ظاهرة واضحة وإما مكر وخداع .. بحيث يظهر العدو لعدوه أنه يحبه ويكيد له فى الخفاء حتى يتمكن منه فيقتله .. ولقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سرا .. لماذا ؟ لأن الله أراد أن يقول لقريش لن تقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بالمكر والخداع والتبييت .. هم بيتوا الفتية ليقتلوه .. وجاءوا من كل قبيلة بفتى ليضيع دمه بين القبائل .. وخرج صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رءوس الفتية .. الله أرادهم أن يعرفوا انهم لن يقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكر والتبييت والخداع ولا بالعداء الظاهر .

قوله تعالى : « والله ذو الفضل العظيم » .. الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان معه فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى اللقطة وأبو داود فى الزكاة .وأحمد فى المسند .

وفضل مال أى مال زائد على حاجته . هذا عن الفضل بالنسبة للبشر . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإن كل ما فى كون الله الآن وفى الآخرة هو فضل لله لأنه زائد على حاجته ؛ فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التى سبقت والتى ستأتى . ولذلك قال : « والله ذو الفضل العظيم » .. أى ذو الفضل الهائل الزائد على حاجته ؛ لأنه ربما يكون عندى فضل ، ولكننى أبقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلا . والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم ؛ لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ؛ لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شىء ، وسيكون بعد ألا يوجد شىء . وهذا مايسمى بالفضل العظيم .



﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولكن ماهو السبب ؟ السبب أن أهل الكتاب والمشركين لايريدون خيرا للمؤمنين فى دينهم ؛ لأنهم أحسوا أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى زمنه خير مما جاء به موسى وبقى إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . . وخير مما جاء به عيسى فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن ننقص ما جاء به الرسل السابقون . . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا فى أزمانهم بخير ما وُجد فى هذه الأزمان . . فكل رسالة من الرسالات التى سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جاءت لقوم محدّدين ولزمن محدّد . . ثم جاء نبى جديد لينسخ ما فى الرسالة السابقة لقوم محددين وزمن محدد . . واقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بنى إسرائيل كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكأن عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة . . ويحل لبنى إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله ؛ لأن دينه للعالمين وباق إلى يوم القيامة .

وهكذا نرى ان المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول جديد كانوا ينتقلون من خير إلى خير . . وفيما تتفق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلى مثل هذا الخير . . وذلك فيما

يتعلق بالعقائد ، وإلى زيادة فى الخير فيها يتعلق بمنهج الحياة . . هناك فى رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول وهى قضية الإيمان بإله واحد أحد له الكمال المطلق . . سبحانه فى ذاته ، وسبحانه فى صفاته ، وسبحانه فى أفعاله . . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . . ولكن الحياة فى تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجهة فى العصر الذى سبق . . فإذا قلنا إن رسالة بقيمتها العقائدية تبقى . . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التى ستأتى بها العصور التى بعدها فيها عدا الإسلام . . لأنه جاء دينا خاتما لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

نقول إن هذا يأتى فى شىء واحد . . يتعلق بالأمر الثابت فى رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد . . أما فيها يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاما فى هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أشياء يعالج بها قضايا لم تكن موجودة فى عهد الرسل السابقين .

يقول الله تبارك وتعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » . . كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتى بآية أخرى بدلا منها . . كما يقال نسخت الشمس الظل . . أى أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هى مكانه . . ويقال نسخت الكتاب أى نقلته إلى صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أى أصبح الشاب شيخا . .

وقوله تعالى « ننسها » لها معان متعددة . . قد يعنى ذلك أن الله يجعل الإنسان يسهو ويغفل عنها . . فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها . . والعلماء إختلفوا فى

هذه المسألة . . وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق . .

نأتى للنسخ فى القرآن الكريم . . قوم قالوا لا نسخ فى القرآن أبدا . . لماذا ؟ لأن النسخ بداء على الله . . ما معنى البداء ؟ هو أن تأتى بحكم ثم يأتى التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم . . وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . نقول لهم طبعا هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى . . ولكننا نقول إن النسخ ليس بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجىء بحكم آخر . . ونقول لهم ساعة حكم الله الحكم أولا فهو سبحانه يعلم ان هذا الحكم له وقت محدود ينتهى فيه ثم يحل مكانه حكم جديد . . ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج . . وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشىء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم . . إن هذا غير صحيح .

لماذا . . لأنه ساعة حكم الله أولا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة . . ثم بعد ذلك ينسخ أو يبدل بحكم آخر . إذن فالمشرع الذى وضع هذا الحكم وضعه على أساس انه سينتهى وسيحل محله حكم جديد . .

وليس هذا كواقع البشر . . فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع . . لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء . . فجاء الواقع ليظهر ما خفى وأصبح الحكم لابد أن ينسخ أو يعدل . . ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك . . أمر الله جعل الحكم موقوتا ساعة جاء الحكم الأول .

مثلا حين وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس . . أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلى بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة ؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلى الكعبة ؟ لا . . لم تكن هذه هى الصورة . . ولكن كان فى شرع الله أن يتوجه المسلمون أولا إلى بيت المقدس فترة ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . .

وإنما كان فى علمه وفى شرعه أنه سيغير القبلة بعد فترة إلى الكعبة . . ولعل لذلك هدفا إيمانيا فى أن العلة فى الأمور هى انها من الله ، فالاتجاه إلى بيت المقدس أو الاتجاه إلى الكعبة لا يكلف المؤمنين جهدا إيمانيا إضافيا . . ولا يضع عليهم تكاليف جديدة . فالجهد نفسه الذى أبذله للاتجاه إلى الشرق أبذله للاتجاه إلى الغرب . ولكن الاختبار الإيمانى أن تكون علة الأمر أنه صادر من الله . . فإذا قال الله اتجه إلى بيت المقدس إتجهنا . . فإذا قال اتجه إلى الكعبة اتجهنا . . ولا قدسية لشىء فى ذاته . . ولكن القدسية لأمر الله فيه .

والله تبارك وتعالى حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لم يسجدوا لذات آدم ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . والله سبحانه وتعالى اختار الكعبة المشرفة بيتا ومسجدا له فى الأرض . . واتخذت الكعبة مقامها العالى عند المسلمين ليس لأنها بقعة فى مكان ما جاءها إبراهيم والأنبياء وحج إليها الناس ، ولكن مقامها جاء من انها هى بيت الله باختيار الله لها . . وكل مساجد الأرض هى بيوت الله باختيار خلق الله . . ولكن المسجد الوحيد الذى هو بيت الله باختيار الله هو الكعبة . . ولذلك كان لابد لكل المساجد التى هى باختيار خلق الله . . أن تتجه إلى المسجد الذى هو باختيار الله . . ولكن العلة الإيمانية الكبرى هى أن نؤمن أن صدور الأمر من الله هو الحيثية لاتباع هذا الأمر دون أن نبحث عن أسبابه الدنيوية .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات فى اليوم . . فدون أن نبحث عن السبب أو نقول لماذا خمسة ؟ فلننقص منها . . دون أن نفعل ذلك نصلى خمس مرات فى اليوم والسبب ان الله قال ، وهكذا الزكاة ، وهكذا الصوم وهكذا الحج . . كلها تتم طاعة لله . . وهكذا تغيير القبلة تم اختباراً للطاعة الإيمانية لله . . فالله موجود فى كل مكان . . فلا يأتى أحد ليقول لماذا الكعبة ؟ وهل الله ليس موجودًا إلا فى الكعبة ؟ نقول لا إنه موجود فى كل مكان . . ولكنه أمرنا أن نتجه إلى الكعبة . . ونحن لا نتجه إليها لأننا نعتقد ان الله تبارك وتعالى موجود فى هذا المكان فقط . . ولكن طاعة لأمر الله الذى أمرنا أن تكون قبلتنا إلى الكعبة .

ولعل تغيير القبلة يعطينا فلسفة نسخ الأيات . . لماذا ؟ لأنه لم توجد أية ظروف أو تجد وقائع ، أو تظهر أشياء كانت خفية تجعل الاتجاه إلى بيت المقدس صعبا أو محوطا بالمشاكل أو غير ذلك ، ولكن تغيير القبلة جاء هنا لأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يتوجه المسلمون إلى بيت المقدس فترة ثم يتوجهوا إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فكل آية نسخت كان فى علم الله سبحانه وتعالى أنها ستطبق لفترة معينة ثم بعد ذلك ستعدل .. وكان كل من الحكم الذى سينسخ ، والوقت الذى سيستغرقه ، والحكم الذى سيأتى بعده معلوما عند الله تبارك وتعالى ومقررا منذ الأزل وقبل بداية الكون .. وأيضا فإن الله أراد أن يلفتنا بالتوجه إلى بيت المقدس أولا .. لأن الاسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الإسلام .. وأنه لا يمكن لأحد أن يدعى ان المسلمين لن يكون لهم شأن فى بيت المقدس ، لذلك أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. ليثبت ان لبيت المقدس قداسة فى الإسلام وإنه من المقدسات عند الله .. ومن هنا كان التوجه إلى بيت المقدس كقبلة أولى ، ثم نسخ الله القبلة إلى الكعبة .. فالحق جل جلاله يقول : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .. أى أن النسخ يكون إما أن يأتى الله سبحانه وتعالى بخير من هذه الآية أو يأتى بمثلها .. وهل الآية المنسوخة كان هناك خير منها ولم ينزله الله ؟ نقول لا .. المعنى ان الآية المنسوخة كانت خيراً فى زمانها .. والحكم الثانى كان زيادة فى الخير بعد فترة من الزمن .. كلاهما خير فى زمنه وفى أحكامه .. والله تبارك وتعالى أنزل الآية الكريمة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته .. ذلك صعب على المسلمين .. ولذلك عندما نزلت الآية قالوا ليس منا من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن)

الذى يتقى الله حق تقاته خير ، أم الذى يتقى الله ما استطاع ؟ طبعا حق تقاته خير من قدر الاستطاعة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « نأت بخير منها » ..

نقول إنك لم تفهم عن الله . . « اتقوا الله حق تقاته » فى الآية الأولى أو « فاتقوا الله ما استطعتم » فى الآية الثانية . . أى الحالتين أحسن ؟ نقول إن العبرة بالنتيجة . . عندما تريد أن تقيم شيئا لابد أن تبحث عن نتيجته أولا .

ولنقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلا ولله المثل الأعلى . . نفرض ان هناك تاجرا يبيع السلع بربح خمسين فى المائة . . ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر فى المائة . . ماذا يحدث ؟ سيقبل الناس طبعا على ذلك الذى يبيع السلع بربح خمسة عشر فى المائة ويشترون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذى يبيع السلع بربح خمسين فى المائة يحقق ربحا أكبر . . ولكن الذى يبيع بربح خمسة عشر فى المائة يحقق ربحا أقل ولكن بزيادة الكمية المبيعة . . يكون الربح فى النهاية أكبر .

والذى يطبق الآية الكريمة : « اتقوا الله حق تقاته » يحقق خيرا أكبر فى عمله . . ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حق تقاته إلا فى أعمال محدودة جدا .

إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أما قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة . . ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل .

عندما نأتى إلى النتيجة العامة . . أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جدا . . وأعمال أجرها أقل ولكنها كثيرة . . أيها فيه الخير ؟ طبعا الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل فى مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها . . رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة . . ولكن فى المحصلة العامة الخير فى الآية التى نصت على الاستطاعة . .

نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى : « أو مِثْلِهَا » . . هنا توقف بعض العلماء : قد يكون مفهوما أن ينسخ الله آية بخير منها ، ولكن ما هى الحكمة فى ان ينسخها بمثلها ؟ إذا كانت الآية التى نسخت مثل الآية التى جاءت . . فلماذا تم النسخ ؟

نقول إننا إذا ضربنا مثلا لذلك فهو مثل تغيير القبلة .. ان الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس نسخ آية بمثلها .. لأن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة فى التكليف .. فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلى اليسار أو إلى الأمام أو إلى الخلف وهو نفس الجهد .. والله سبحانه وتعالى كما قلنا موجود .. وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التى تحدثنا عنها وأن هناك أفعالا نقوم بها لأن الله قال .. وهذه تأتى فى العبادات لأن العبادة هى طاعة عابد لأمر معبود .. والله تبارك وتعالى يريد أن نثبت العبودية له عن حب واختيار .. فإن قال افعلوا كذا فعلنا .. وإن قال لا تفعلوا لا نفعل .. والعلة فى هذا أننا نريد اختياراً أن نجعل مراداتنا فى الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى .. إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت لحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « أو نُنْسِهَا » ما معنى ننسها ؟ قال بعض العلماء إن النسخ والنسيان شيء واحد .. ولكن ساعة قال الله الحكم الأول كان فى إرادته ومشيئته وعلمه أن يأتى حكم آخر بعد مدة .. ساعة جاء الحكم الأول ترك الحكم الثانى فى مشيئته قدرا من الزمن حتى يأتى موعد نزوله .

إذن فساعة يأتى الحكم الأول .. يكون الحكم مرجأ ولكنه فى علم الله . ينتظر انقضاء وقت الحكم الأول : « ما ننسخ من آية » هى الآية المنسوخة أو التى سيتم عدم العمل بها : « أو ننسها » .. أى لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحى مع انها موجودة فى علمه سبحانه .. ويجب أن نتنبه إلى أن النسخ لا يحدث فى شيئين :

الأول: أمور العقائد فلا تنسخ آية آية أخرى فى أمر العقيدة .. فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة .. فالله سبحانه واحد أحد لا تغيير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم .. وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبدا ..

والثانى: الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة .. لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع .. والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله .. فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تنسخ

بعد ذلك وتروى بتفاصيل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت .. إذن لا نسخ فى العقائد والإخبار عن الله .. ولكن النسخ يكون فى التكليف .. مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾

(سورة الأنفال)

كأن المقياس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار ويغلبهم .. ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين .. ولذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾

(سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف .. لذلك لن يستطيع الواحد منهم أن يقاتل عشرة ويغلبهم .. فنقلها إلى خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يغلب المؤمن الواحد اثنين من الكفار .. وهذا حكم لا يدخل فى العقيدة ولا فى الإخبار .. وفى أول نزول القرآن كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة يمسكونها فى البيت لا تخرج منه حتى تموت .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) ﴾

(سورة النساء)

وبعد أن شاع الإسلام وامتلأت النفوس بالإيمان .. نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد .. ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثانى فى علم الله .. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « أو يجعل الله لهن سبيلا » .. وقوله سبحانه :

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى حتى يأتى الله بأمره .. كأن هناك حكما أو أمرا فى علم الله سيأتى ليعدل الحكم الموجود .. إذن الله حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة .. ان هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل .. بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله من الحكم الأول .. ومن عظمة الله أن مشيئته اقتضت فى الميراث أن يعطى الوالدين اللذين بلغا أرذل العمر فقال جل جلاله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

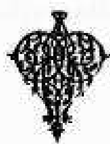
وهكذا جعلها فى أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا .. لماذا ؟ لإن الإنسان إن مات فهو الحلقة الموصولة بأبيه .. أما أبناؤه فحلقة أخرى .. ولما استقرت الأحكام فى النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله .. جعل سبحانه المسألة فرضا .. فيستوفى الحكم . ويقول جل جلاله :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ

ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(سورة النساء)

وهكذا بعد أن كان نصيب الوالدين فى تركة الإبن وصية . . إن شاء أوصى بها وإن شاء لم يوص أصبحت فرضا . . وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » . . أى كل شىء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه . . إذا قلنا إذا جاء اللهبحكم لعصر فهذا هو قمة الخير . . لأنه إذا عُدل الحكم بعد أن أدى مهمته فى عصره ، فإن الحكم الجديد الذى يأتى هو قمة الخير أيضا . . لأن الله على كل شىء قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه . . ولذلك فمن عظمة الله انه لم يأت بالحكم خبرا من عنده ولكنه أشرك فيه المخاطب . . فلم يقل سبحانه « إن الله على كل شىء قدير » . . ولكنه قال : « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » . . لأنه واثق أن كل من يسمع سيقول نعم . . وهذا ما يعرف بالاستفهام الإنكارى أو التقريرى .



﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات نسخت فى القرآن .. أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى كونه يفعل ما يشاء .. ولذلك بدأ الآية الكريمة : « ألم تعلم » .. وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكارى أو التقريرى .. لأن السامع لا يجد إلا جوابا واحدا بأنه يقر ما قاله الله تبارك وتعالى .. ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق .

قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » .. الملك يقتضى مالكا ويقتضى مملوكا .. ويقتضى قدرة على استمرار هذا الملك وعدم زواله .. فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة .. والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه .. والإنسان لا يملك الفعل فى الكون .. إن أراد مثلا أن يبنى عمارة قد لا يجد الأرض .. فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذى يبنى .. فإن وجده قد لا يجد مواد البناء .. فإن وجد هذا كله قد تأتى الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض .. أو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتم البناء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » .. أى أن كل شىء فى الوجود هو ملك لله وهو يتصرف بقدرته فيما يملك .. ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .. كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوى لذلك سادوا المدينة .. وبدأوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .. والله تبارك وتعالى طمأن رسوله بأن طلاقة القدرة فى الكون هى لله وحده .. وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك ممن

يشاء ويعطيه لمن يشاء .. ولذلك حينما يأتى يوم القيامة ويُهلك الله الأرض ومن عليها .. يقول سبحانه :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول :

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ومادام الله هو المالك وحده .. فإنه يستطيع أن ينزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه .. ويحدثنا العلماء أن العسس وهم الجنود الذين يسيرون ليلا لتفقد أحوال الناس وجدوا شخصا يسير ليلا .. فلما تقدموا منه جرى فجروا وراءه إلى أن وصل إلى مكان خرب ليستتر فيه .. تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة قتيل فى المكان .. فقالوا له أنت القاتل لأنك جريت حين رأيتنا ولأنك موجود الآن فى المكان الذى فيه جثة القتيل .. فأخذوه ليحاكموه فقال لهم أمهلونى لأصلى ركعتين لله .. فأمهلوه فصلى ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتى إلا أنت .. وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك فى نفسك .. فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل فقال .. أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بجريمتى .. فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بجريمتك ولم يرك أحد ولم يتهمك أحد .. فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لسانى بما قلت .. فلما أقر القاتل بما فعل وقام ولى المقتول وهو أبوه فقال .. اللهم إنى أشهدك إنى قد أعفيت قاتل ابنى من دينه وقصاصه .

انظر إلى طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى .. القاتل أراد أن يختفى ولكن أنظر إلى دقة السؤال من السائل أو المتهم البرىء .. وقد صلى ركعتين لله .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حزبنا أمر قمنا إلى الصلاة فليس أمامنا إلا هذا الباب .. وبعد أن صلى سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد ببراءتى أحد إلا أنت فأسألك ذلك فى نفسك وبعد ذلك كان ما كان .

وهذه القصة تدلنا على أننا فى قبضة الله .. أردنا أو لم نرد .. بأسباب أو بغير أسباب .. لماذا ؟ .. لأن الله له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير .. وقوله تعالى : « وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .. الولى هو من يواليك ويحبك .. والنصير هو الذى عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولى .. الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم ولىٌّ ونصير أى محب وأنصركم على من يعاديكم .



﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ثم ينقل الحق جل جلاله المسلمين بعد أن بين لهم أنه وليهم ونصيرهم .. ينقلهم الى سلوك أهل الكتاب من اليهود مع رسلهم حتى يتفادوا مثل هذا السلوك فيقول جل جلاله : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » .. الحق يقول للمؤمنين أم تريدون أن تسألوا رسول الله كما سأل اليهود موسى .. ولم يشأ الحق أن يشبه المسلمين باليهود فقال : « كما سُئِل موسى من قبل » .. وكان من الممكن أن يقول أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى .. ولكن الله لم يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهذا تكريم من الله للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود .. وقد سأل اليهود موسى عليه السلام وقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

وقد سأل أهل الكتاب والكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ
عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

الله تبارك وتعالى يهيب بالمؤمنين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كما سأله أهل الكتاب والكفار ويقول لهم ان اليهود قد سألوا موسى أكبر من ذلك . . فبعد أن رأوا المعجزات وشق الله البحر لهم . . وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة فلم تكن خافية عنهم . . بل كانت ظاهرة لهم واضحة . . دالة دلالة دامغة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته . . ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . أى لم تكفهم هذه المعجزات . . وكأنما كانوا بماديتهم يريدون أن يروا فى حياتهم الدنيوية من لا تدركه الأبصار . . وبمجرد أن عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنما يعبدونه وعبدوا العجل رغم كل الآيات التى شاهدوها .

وقوله تعالى : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » . . قلنا ان الباء فى قوله تعالى : « بالإيمان » تدخل دائما على المتروك . . كأن تقول اشتريت هذا بكذا درهم . . يعنى تركت الدراهم وأخذت البضاعة . . ومعناها أن الكفر مأخوذ والإيمان متروك . . فقد أخذ اليهود الكفر وتركوا الإيمان حين قالوا لموسى : « أرنا الله جهرة » . . وقوله سبحانه : « فقد ضل سواء السبيل » .

ما هو الضلال ؟ . . هو أن تسلك سبيلا لا يؤدى بك إلى غايتك . . « وسواء السبيل » . . السواء هو الوسط . . و« سواء السبيل » . . هو وسط الطريق . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى فى وسط الجحيم .. أى أنه يكون بعيدا عن الحافتين بعدًا متساويًا .. وسواء الطريق هو وسطه .. والسبيل أو الطريق كان قبل استخدام التكنولوجيا الحديثة تكون أطرافه وعرة من جنس الأرض قبل أن تمهد .. أى لا تصلح للسير .. ولذلك فإن السير فى وسط الطريق يبعدك عن المتاعب والصعوبات.ويريد الله من المؤمنين به أن يسيروا فى الطريق الممهد أو فى وسط الطريق لأنه أكثر أمانا لهم .. فهم فيه لن يضلوا يمينا ولا يسارا بل يسيروا على منهج الله والإيمان .. وطريق الإيمان دائما ممهد لا يقودهم إلى الكفر .



﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثا وقعت بعد غزوة أحد .. وفى غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من الرماة ألا يغادروا مواقعهم عند سفح الجبل سواء إنتصر المسلمون أو انهزموا .. فلما بدأت بوادر النصر طمع الرماة فى الغنائم .. فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم الله .. ولكن الكفار لم يحققوا نصرا لأن النصر هو أن تحتل أرضا وتبقى .

هؤلاء الكفار بعد المعركة انطلقوا عائدين إلى مكة .. حتى ان المسلمين عندما خرجوا للقائهم فى اليوم التالى لم يجدوا أحدًا .. يهود المدينة إستغلوا هذا الحدث .. وعندما التقوا بحذيفة بن اليمان وطارق وغيرهما .. قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقا لماذا إنهزمتم فارجعوا إلى ديننا واتركوا دين محمد .. فقال لهم حذيفة ماذا يقول دينكم فى نقض العهد ؟ .. يقصد ما تقوله التوراة فى نقض اليهود ولعهودهم مع الله ومع موسى .. ثم قال انا لن انقض عهدى مع محمد ما حييت .. أما عمار فقال .. لقد آمنت بالله ربا وآمنت بمحمد رسولا وآمنت بالكتاب إماما وآمنت بالكعبة قبلة وآمنت بالمؤمنين إخوة وسأظل على هذا ما حييت .

ويلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حذيفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث فى أحد ليهزوا العقيدة الإيمانية فى قلوب المسلمين كما استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليهزوا الإيمان فى القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا اتجهتم إليها ، وإذا كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فنزل قول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم » .

انظر إلى دقة التعبير القرآنى فى قوله تعالى : « من أهل الكتاب » . . فكأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم . . ولكن كانت هناك قلة تفكر فى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب لسد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا . . أى أن أهل الكتاب من اليهود يحبون أن يردوكم عن دينكم وهؤلاء هم الكثرة . . لأن الله تعالى قال : « ود كثير من أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : « من بعد إيمانكم كفارا » . . كفارا بماذا ؟ . . بما آمنتم به أو بما يطلبه منكم دينكم . . وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : « حسدا من عند أنفسهم » . . فدينهم يأمرهم بعكس ذلك . . يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ولذلك فهم لا ينفذون ماتأمرهم به التوراة حينما يرفضون الإيمان بالإسلام . . والذى يدعوهم إلى أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد . . والحسد هو تمنى زوال النعمة عمن تكره . . وقوله تعالى : « حسدا من عند أنفسهم » . . أى هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان . . ويتمنون زوال هذه النعمة . . التى جعلت من المسلمين إخوانا متحابين متكاتفين مترابطين . . بينما هم شيع وأحزاب . . وهناك حسد يكون من منطق الدين وهذا مباح . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فَسُلِّط على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس »[1] .

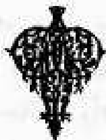
فكأن الحسد حرام فى غير هاتين الحالتين . . فكأن هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم . . وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تقره التوراة ولا كتبهم . . وقوله سبحانه : « من بعد ما تبين لهم أنه الحق » . . أى بعد ما تأكدوا من التوراة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبى الخاتم .

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » . . ما هو العفو وما هو الصفح ؟ . . يقال عفت الريح الأثر أى مسحته وأزالته . . فالإنسان حين

---

(١) رواه البخارى فى العلم ومسلم فى قصر الصلاة وابن ماجة فى الزكاة وأحمد فى مسنده .

يمشى على الرمال تترك قدمه أثرا فتأتى الريح وتعفو الأثر أى تزيله .. ولذلك فإن العفو أن تمحو من نفسك أثر أى إساءة وكأنه لم يحدث شيء .. والصفح يعنى طى صفحات هذا الموضوع لا تجعله فى بالك ولا تجعله يشغلك .. وقوله تعالى : « حتى يأتى الله بأمره » .. أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه فى المؤمنين لن يستمر لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه .. وعندما يأتى سيتغير كل شيء .. لذلك يقول الله للمؤمنين لن تظلوا هكذا .. بل يوم تأخذونهم فيه بجرائمهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا .. عندما يقول الله سبحانه : « حتى يأتى الله بأمره » .. فلابد أن أمر الله آت .. لأن هذه قضية تتعلق بجوهر الإيمان كله .. فلا يقال أبدا حتى يأتى الله بأمره ثم لا يجيء هذا الأمر .. بل أمر الله بلاشك نافذ وسينصركم عليهم .. وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » .. أن الله له طلاقة القدرة فى ملكه .. ولذلك إذا قال أنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتما وسيتم .. ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه .. ولا قوة إلا قوته جل جلاله .. ولا فعل إلا ما أراد .



﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ١١٠

بعدأن بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أمانى أهل الكتاب أن يردونا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم.أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما الذى يكرهه أهل الكتاب .. وقال إن الذى يتعبهم ميزان العدل والحق الذى نتبعه .. منهج الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يثبتوا ويتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم .. والتكاليف التى جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتا من الزمن وقليلا من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إن شهادة لا إله الا الله تقال مرة فى العمر .. والزكاة والصوم مرة كل عام .. والحج للمستطيع مرة فى العمر .. ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطى المؤمن شحنة اليقين والإيمان ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات فى اليوم .. وهذه هى العبادة التى لا تسقط أبدا .. والإنسان سليم والإنسان مريض .. فالمؤمن يستطيع أن يصلى واقفا وأن يصلى جالسا وأن يصلى راقدا .. وأن يجرى مراسم الصلاة على قلبه .. لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر فى قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » أى والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة .. وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله .. إقبال فى ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا فى حضرته يعطيكم الله المدد .. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى)[1] .

ومعنى حزبه أمر .. أى ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجا ولا طريقا إلا أن يلجأ

---

(١) رواه أحمد وأبوداود عن حذيفة وفى رواية : كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

إلى الله . . إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلى ركعتين غير الفريضة . . ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربه . . إذن : « فأقيموا الصلاة » هى الرد المناسب على كل محاولاتهم ليسلبوكم دينكم . . ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الولاء الإيمانى لله كل يوم خمس مرات . . نترك كل ما فى الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة . . إنها عماد الدين وأساسه .

وقوله تعالى : « وآتوا الزكاة » . . ايتاء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نضرب فى الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد . . وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الإقتصادية التى يستذلون بها المسلمين .

فالمؤمن حين يأتى الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره . . ولذلك حتى الفقير يجد فى الزائد فى أموال المسلمين ما يكفى حاجته . . فلا يذهب إلى اليهودى ليقترض بالربا . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون . . بحيث تكفى أموالهم غنيهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر. والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)[1] .

وقد سميت « الزكاة » لأنها فى ظاهرها نقص وفى حقيقتها زيادة . . والربا ظاهره زيادة وحقيقته نقص . . وفى ذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾

(من الآية ٢٧٦ سورة البقرة)

ثم يقول الحق سبحانه : وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » . . إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هى ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى . . فإذا

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .

صلى فله أجر وإذا زكى فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منهج الله له أجر ، وليس أجرا بقدر العمل،بل أضعاف العمل . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف أن كل حركة فى منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى . . ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة . . وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه . . ولذلك فهو ليس مضاعفا فقط فى عدد المرات ولكنه مضاعف فى القدرة أيضا . . فكأن كل إنسان غير مؤمن لا أجر له فى الآخرة . . وإذا أعطى فى الدنيا يُعطى عطاء المثل . . ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة . . وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باق وخالد .

والخير الذى تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكره . . ويقول لا شيء لك عندى.ولكن الله سيدخره لك . . فانظر إلى الإطمئنان والعمل فى يد الله الأمينة ، وفى مشيئته التى لا يغفل عنها شيء ، وفى قدرته التى تضاعف أضعافا مضاعفة . . وتجده فى الوقت الذى تكون فى أحوج اللحظات إليه وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله بما تعملون بصير » . . أى لا تعتقد أن هناك شيئا يخفى على الله ، أو أن أحدا يستطيع أن يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شيء . . ليس بالظاهر منك فقط . . ولكن بما تخفيه فى نفسك ولا تطلع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شيء واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) ﴾

(سورة إبراهيم)

وهكذا نطمئن إلى أن الله بصير بكل شيء ، وانظر إلى قوله جل جلاله : « يعملون » لتفهم أهمية العمل .

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل فى منهج الله له أجر ، وأجر باق وثابت ومضاعف عند الله ومحفوظ بقدرة الله سبحانه .. أراد أن يرد على ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثيروا اليأس فى قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط علهم ينصرفون عن الإسلام .. لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما افتروه .

واقرأ قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. وفى هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى .. ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا » .. وقالت النصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا » .. والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض فى آية ستأتى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ومعنى ذلك أنهم تناقضوا فى أقوالهم ، فقالت النصارى:إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه . ثم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا .. ثم قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

ويقول الناس إذا كنت كذوبا فكن ذكورا ، ذلك أن الذى يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تجد أن المحقق أو القاضى يظل يسأل

المتهم أسئلة مختلفة .. حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب .. فأنت إذا رويت الواقعة كما حدثت فإنك ترويها مائة مرة دون أى خلاف فى التفاصيل.ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك .. والله سبحانه وتعالى يقول : « تلك أمانيهم » .. ما هى الأمانى ؟.. هى أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية .. ولكن إذا كان التمنى قائما على عمل يوصلك إلى تحقيق الأمنية فهذا شىء آخر.

بعض الناس يقول التمنى وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس .. فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما فى نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية .. نقول إن الصدمة التى ستلحق بالإنسان بعد ذلك ستدمره .. ولذلك لا يكون فى الكذب أبدا راحة .. فأحلام اليقظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهى لا تعطى الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة .. ولذلك يقول الشاعر :

مُنَى إنْ تَكُنْ حقاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنَى   وَإلاَّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغَدَا

يعنى الأمانى لو كانت حقيقة أو تستند إلى الحقيقة فإنها أحسن الأمانى لأنها تعيش معك.. فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا

أمانى من ليلى حسان كأنما   سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا

وقوله تعالى : « تلك أمانيهم » تبين لنا أن الأمانى هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .. والحق سبحانه يقول : « قل هاتوا برهانكم » .. ما هو البرهان ؟.. البرهان هو الدليل .. ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه فى جدال واختلفت وجهات النظر بينك وبينه .. ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكداً أن محدثك كاذب .. وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه.

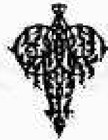
هب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له .. وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا .. فى هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل .. (فالكمبيالة) التى

كتبتها له أو الشيك أو إيصال الأمانة . . وأضعف الإيمان أن تطلب منه شهودا على أنك أخذت منه المال . . ولكن قبل أن تطالبه بالدليل . . يجب أن تكون واثقا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنك لم تأخذ منه شيئا .

إذن فقول الحق سبحانه : « هاتوا برهانكم » . . كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون . . وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل . . فلن يجدوا فى كتب الله ولا فى كلام رسله مايؤكد مايدعونه ، وإن أضافوه يكن هذا افتراء على الله ويكن هناك الدليل الدامغ على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من إفترائهم .

إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه . . ولو كان هناك برهان ولو كان فى هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة . . ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل .

إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون ؛ لأنك رددت الأمر إليه فيما يدعيه . . وهو يجب أن يثبته ويفعل كل شىء فى سبيل الحصول على برهان . . ولا يمكن أن يقول الله : « هاتوا برهانكم » . . إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون . . ولذلك قال : « إن كنتم صادقين » . . أى إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح ، لأن الله يعرف يقينا انكم تكذبون .



﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود وطالبهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذى سيدخل الجنة .. فقال : « بلى » .. وعندما تقرأ : « بلى » اعلم انها حرف جواب ولابد أن يسبقها كلام ونفي .. فساعة يقول لك إنسان ليس لى عليك دين .. إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين .. ولكن إذا قلت بلى فذلك يعنى أن عليه دينا وأنه كاذب فيما قاله .. إذن بلى تأتى جوابا لتثبت نفى ما تقدم .

هم قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. عندما يقول الله لهم بلى فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح .. وأنه سيدخلها غير هؤلاء .. وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى .. أن كل يهودى وكل نصرانى سيدخل الجنة .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينما جاء الإسلام بأن الذى لا يسلم لا يدخل الجنة .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى .. أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى .. لأن القرآن أزلى .. ما معنى أزلى ؟ .. أى أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة .. فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى .. فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان فى هذا تجاوزٌ .. لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتبعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمدا عليه الصلاة

والسلام .. فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله .. وهناك من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته .. وعاصره ونفذ تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يُبْعَثَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام .. أهذا لن يدخل الجنة ؟.. لا .. يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء .. ولكن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة .. بل ولن يراها .. ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

إذن فقوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن » .. أى لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن .. فقد يسلم واحد وجهه لله ويكون منافقا يظهر غير ما يبطن .. نقول إن المنافقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين .. لأن لهم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة فى الحقيقة أو فى قلوبهم .

قوله تعالى : « من أسلم وجهه لله » تدلنا على أن كل شيء أسلم لله لأن الوجه هو أشرف شيء فى الإنسان .. فيه التمييز وفيه السمة وفيه التشخص وهو أعلى ما فى الجسم .. وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أى حيوان مفكر .. وقال بعضهم حيوان مستوى القامة يعنى قامته مرفوعة .. والقامة المرفوعة على بقية الجسم هى الوجه .. والإنسان مرفوع على بقية أجناس الأرض .. إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه .. فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شيء فيه لله .. ولذلك قيل .. أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد .. لماذا ؟ .. لأنه جاء بالوجه الذى رفعه الله به وكرمه .. وجعله مساويا لقدميه ليستوى أكمل شيء فيه بأدنى شيء .. فلم يبق عنده شيء يختال به على الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « فله أجره عند ربه » .. كلمة « أجره عند ربه » .. دلت على أن الله لم يجعلنا مقهورين .. ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين أن نفعل أو لا نفعل .. فإن فعلنا فلنا أجر .. ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فالمنطقى أن يكون الأجر عند الله .. وألا يوجد خوف أو حزن .. لأن الخوف يكون من شيء سيقع .. والحزن يأتى على شيء قد وقع .. ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرنا عند الله .

ان الإنسان حين يكون له حق عند مساويه . . فربما يخاف أن ينكر المساوى هذا الحق أو يطمع فيه ، أو يحتاج إليه فيدعى عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . ولذلك فهو لا يطمع فيما فى أيدينا من خير لأنه من عنده . . ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائن السموات والأرض .

الله سبحانه لا ينكر حقا من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا . . ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعَف ويزداد . . وما عند الله لا حزن عليه . . لأن الإنسان يحزن إذا فاته خير . . ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته . . فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات . . ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . أدق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين فى الآخرة . . أنهم يكونون فرحين بما عند الله لا خوف عندهم ولا حزن .



﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

نقول إن أصدق ما قاله اليهود والنصارى .. هو أن كل طائفة منهم اتهمت الأخرى بأنها ليست على شيء .. فقال اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .. والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب .. اليهود أهل كتاب والنصارى أهل كتاب .. ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان له وبذلك تساوى مع المشركين .

الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء .. أى ان المشركين يقولون اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. واليهود يقولون المشركون ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. وبذلك أصبح لدينا ثلاث طوائف يواجهون الدعوة الإسلامية .. طائفة لا تؤمن بمنهج سماوى ولا برسالة إلهية وهؤلاء هم المشركون .. وطائفتان لهم إيمان ورسل وكتب هم اليهود والنصارى .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. أى الذين لا يعلمون دينا ولا يعلمون إلها ولا يعلمون أى شيء عن منهج السماء .. اتحدوا فى القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحدا .

وكان المفروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من الله ورسل جاءتهم للهداية .. كان من المفروض أن يتميزوا على المشركين .. ولكن تساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. وهذا معنى قوله تعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. ومادامت الطوائف الثلاث قالوا على بعضهم نفس القول .. يكون حجم الخلاف بينهم كبيرا وليس صغيرا .. لأن كل واحد منهم يتهم الآخر انه لا دين له .

هذا الخلاف الكبير من الذى يحكم فيه ؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذى يعلم كل شيء . . وهو سبحانه القادر على أن يفصل بينهم بالحق . . ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا . . فالدنيا دار اختبار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل فى قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطىء من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة . . والطوائف الثلاث فى إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . . ويأتى الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب .



﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ
فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ
لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام ، وكيف ان هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء و يواجه بعضها البعض باتهامات .. فكل طائفة منها تتهم الأخرى انها على باطل .. أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » .. مساجد الله هى الأماكن التى يتم فيها السجود لله .. والسجود علامة الخضوع وعلامة العبودية كما بينا .. لأنك تضع أشرف شىء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعا لله وخشوعا له .

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصلى أتباع أى دين إلا فى مكان خاص بدينهم .. مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه .. ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجدا وجعلها طهورا .. ومعنى ان تكون الأرض كلها مسجدا هو توسيع على عباد الله فى مكان التقائهم بربهم وفى أماكن عبادتهم له حتى يمكن أن تلتقى بالله فى أى مكان وفى أى زمان .. لأنه لا يحدد لك مكانا معينا لا تصح الصلاة إلا فيه .. وأنت إذا أردت أن تصلى ركعتين لله بخلاف الفرض .. مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف .. أو أى صلاة من السنن التى علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإنك تستطيع أن تؤديها فى أى وقت .. فكأنك تلتقى بالله سبحانه أين ومتى تحب .

ومادام الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بأن جعل لهم الأرض مسجدا طهورا فإنما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(أُعطيتُ خمسا لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلي . نُصرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ ولم تحل لأحدٍ قبلي وأُعْطِيتُ الشفاعةَ وكان النبى يُبْعَثُ إلى قومه خاصة وَبُعِثْتُ إلى الناسِ عامة)[1] .

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة ؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا . . كلما ارتقى العقل فى علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات . . وجاء بمبتكرات ومخترعات تفتن عقول الناس . . وتجذبهم بعيدا عن الدين فيعبدون الأسباب بدلا من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له ميسرة دائما حتى يعصمهم من هذه الفتنة . . وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض فى نفس لحظة حدوثها . . أن نسجد لله على نعمه التى كشف لنا عنها فى أى مكان نكون فيه . . فخصائص الغلاف الجوى موجودة فى الكون منذ خلق الله السموات والأرض . . لم يضعها أحد من خلق الله فى كون الله هذه الأيام . . ولكنها خلقت مع خلق الكون . . وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه الأيام . . فلابد أن نسجد لله شكرا على نعمه التى كشفت لنا أسرارا فى الكون لم نكن نعرفها . . وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلى قضايا الغيب .

فإذا قيل لنا أن يوم القيامة سيقف خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب . . وان كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه . . لا نتعجب ونقول هذا مستحيل . . لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن فى منتهى الراحة . . ونحن جالسون فى منازلنا أمام التليفزيون . . أى اننا نراها جميعا فى وقت واحد دون جهد . . فإذا كانت هذه هى قدرات البشر للبشر . . فكيف بقدرات خالق البشر للبشر ؟ .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن جابر

عندما نرى أسرار قوانين الله فى كونه . . لابد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى ، الذى وضع كل هذا العلم والإعجاز فى الكون . . وهذا السجود يقتضى أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمكنك وأنت فى مكانك أن تسجد لله شكرا . . ولا تضطر للذهاب إلى مكان آخر قد يكون بعيدا أو الطريق إليه شاقا فينسيك هذا شكر الله والسجود له . . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء بربهم ، لأن هناك أشياء ستأتى الرسالة المحمدية فى موعد كشفها لخلق الله . . وكلما انكشف سر من أسرار الوجود إغتر الإنسان بنفسه . . ومادام الغرور قد دخل إلى النفس البشرية . . فلابد أن يجعل الله فى الكون ما يعدل هذا الغرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . . كانت الأمور فطرية فإذا امتنعت الأمطار ونضبت العيون والآبار . . لم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى السماء بصلاة الاستسقاء . . وكذلك فى كل أمر يصعب عليهم مواجهته . . ولكن الآن بعد أن كشف الله لخلقه عن بعض أسراره فى كونه . . أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عددا من أزمات الكون . . هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون انهم قادرون على حل مشكلاتهم . . بعيدا عن الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة . . فبدأ الاعتماد على الخلق بدلا من الإعتماد على الحق . . ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾

(الآية ٣٥ ومن الآية ٣٦ سورة النور)

ما هى هذه البيوت التى يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى ؟ هى المساجد . . فَعُمَّارُ المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله . . فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها . . فمعنى ذلك ان المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان ضعفاء الذين تجرأ عليهم أعداؤهم . . لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر إسم الله فى مساجد الله . . أو أن يسعى إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة . . ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتا من بيوت الله . . يهب الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قويا . . فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم . . لماذا ؟ لأن الكافر الذى يريد أن يطفىء مكان إشعاع نور الله لخلقه . . يعيش فى حركة الشر فى الوجود التى تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله فى بيته وأن يخربوه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . .

أى ان هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه . . فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين . . فمعنى ذلك أن وازع الإيمان فى نفوس المؤمنين قد ضعف .

قوله تعالى : « ومن أظلم » . . معناه انه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذى يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . . أى ان هذا هو الظلم العظيم . . ظلم القمة . . وقوله تعالى : « وسعى فى خرابها » . . أى فى إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة . . والسعى فى خراب المسجد هو هدمه .

ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . . أى لن يتركهم الله فى الدنيا ولا فى الآخرة . . بل يصيبهم فى الدنيا خزى . . والخزى هو الشىء القبيح الذى تكره أن يراك عليه الناس . . قوله تعالى : « لهم فى الدنيا خزى » . . هذا مظهر غيرة الله على بيوته . . وانظر إلى ما أذاقهم الله فى الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون فى خراب مساجد الله . . لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم . . هذا حدث . . وهذا معنى قوله تعالى الخزى فى الدنيا . . أما فى الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون

حسابا عسيرا لتطاولهم على مساجد الله سبحانه، ولكن فى الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله .. سيكون لهم أيضا عذاب أليم .

انني أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله فى مساجده .. لأنه فى هذه الحالة يكون مرتكبا لذنبهم نفسه وربما أكثر .. ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .



﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها . . ويمنعون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة أراد أن يذكرنا بأن تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد . . وتخريبها معناه أن تخرب الأرض كلها . . ولأن الله تبارك وتعالى موجود فى كل مكان فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات .

وقوله تعالى : « فثم وجه الله » . . أى هناك وجه الله . . وقوله تعالى : « والله واسع عليم » . . أى لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم ؛ لأن الله واسع موجود فى كل مكان فى هذا الكون وفى كل مكان خارج هذا الكون . . ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولله المشرق والمغرب » لا يعنى تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط . . ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها . . شمالها وجنوبها والشمال الشرقى والجنوب الغربى وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها . . فهناك شمال شرقى وجنوب شرقى وشمال غربى وجنوب غربى . . كما إن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس . . فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب . فأنت كل يوم ترى شروقا وترى غروبا.

الله سبحانه وتعالى حين يقول : « ولله المشرق والمغرب » فليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقديم . . كما تقول بالقلم

كتبت وبالسيارة أتيت . . أى ان الكتابة هى خصوص القلم والاتيان خصوص السيارة . . وهذا ما يعرف بالاختصاص . . فهذا مختص بكذا وليس لغيره شيء فيه . . ولذلك فإن معنى : « ولله المشرق والمغرب » . . ان الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد . . وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه ان الله تبارك وتعالى فى بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه ان الله جل جلاله فى الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد فى الصلاة . . وذلك دليل على وحدة الهدف . . فيجب أن تفرق بين اتجاه فى الصلاة واتجاه فى غير الصلاة . . اتجاه فى الصلاة نكون جميعا متجهين إلى مكان محدد إختاره الله لنا لنتجه إليه فى الصلاة . . والناس تصلى فى جميع أنحاء العالم متجهة إلى الكعبة . . الكعبة مكانها واحد لا يتغير . . ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذى يتغير . . فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا . . كل منا يتجه اتجاها مختلفا حسب البقعة التى يوجد عليها من الأرض . . ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا اننا نلتقى فى اتجاهنا إلى مكان واحد .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف اننا إذا قلنا : «ولِلهِ المشرقُ» فلا نظن ان المشرق إتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان . . فكل مكان فى الأرض له مشرق وله مغرب . . فإذا أشرقت الشمس فى مكان فإنها فى نفس الوقت تغرب فى مكان آخر . . تشرق عندى وتغرب عند غيرى . . وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين . . فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشروق الشمس الظاهرى وغروبها . . تجد ان المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض . . فى كل دقيقة شروق وغروب .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » . . أى يتسع لكل ملكه لا يشغله شيء عن شيء . . ولذلك عندما سئل الإمام على كرم الله وجهه . . كيف يحاسب الله الناس جميعا فى وقت واحد ؟ قال كما يرزقهم جميعا فى وقت واحد . .

إذن فالله لا يشغله شيء عن شيء . . ولا يحتاج فى عمله إلى شيء . . إنما عمله « كن فيكون » .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (١١٦)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى ان له كل شيء فى الكون لا يشغله شيء عن شيء . . أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا لله معينا فى ملكه . . الذين قالوا اتخذ الله ولدًا . . الله تبارك وتعالى رد عليهم انه لماذا يتخذ ولدا وله ما فى السموات والأرض كل له قانتون . . وجاء الرد مركزا فى ثلاث نقاط . . قوله تعالى : « سبحانه » أى تنزه وتعالى أن يكون له ولد . . وقوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : « كل له قانتون » . . أى كل من فى السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بألوهيته .

قضية إن لله سبحانه وتعالى ولداً جاءت فى القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها . . ولأنها قضية فى قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى . . وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد ان هناك أقوالا متعددة . . هناك قول قاله المشركون . . واقرأ القرآن الكريم :

﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) ﴾

(سورة الصافات)

وقول اليهود كما يروى لنا القرآن :

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

وقول النصارى :

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

ثم فى قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف إن هذا إدعاء خطير مستقبح مستنكر وممقوت .. لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجا واسعا .. علاجا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان .. إنفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التى تلعن كل من قال ذلك .. بل وتكاد شعورا منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أى تسقط قطعا صغيرة .. وتنشق الأرض أى تتمزق .. وتخر الجبال أى تسقط كتراب .. كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل .. لأن هذا الادعاء إفتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات فى سورة مريم التى أعطتنا معجزة خلق عيسى .. كما وردت القضية فى عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هى الشبهة التى جعلتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذى جعلهم يلجأون إلى هذا الافتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم .. كلمة الله ألقاها إلى مريم .. نقول لهم كلنا كلمة « كن » .

لماذا فتنتم فى عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

قوله كمثل آدم لمجرد مجاراة الخصم .. ولكن المعجزة فى آدم أقوى منها فى عيسى عليه السلام .. أنتم فتنتم فى عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع .. وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة .. إذن فالمعجزة أقوى .. وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى .. ومن العجيب انكم لم تذكروا الفتنة فى آدم وذكرتم الفتنة فيها فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين فى آدم .. وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

أى لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد .. ولكنه جل جلاله لم يتخذ ولدا .. فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله .. وإنما ابتدعوه واختلقوه ..

الله جل جلاله يقول : « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض » .. قوله تعالى : « بل له ما فى السموات والأرض » تعطى الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما فى الكون .. والملكية تنافى الولدية .. لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما فى الكون من خلق الله .. كل شىء هو خالقه بدون معارض ..

ومادام هو خالقه وموجده . . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءا منه . . لأن الذى يخلق شيئا يكون فاعلا . . والفاعل له مفعول . . والمفعول لا يكون منه أبدا . . هل رأيت واحدا صنع صنعة منه ؟ الذى يصنع سيارة مثلا . . هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسى والساعة والتليفزيون . . هل هذه المصنوعات من جنس الذى صنعها ؟ طبعا لا .

إذن مادام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبدا . . كل فاعل يوجد شيئا أقل منه . . فنقول الله : « سبحانه » . . أى تنزيه له تبارك وتعالى . . لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستبقاء حياة والده التى لا يضمنها له واقع الكون . . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذى يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلا إن له ولدًا واحدًا فالمفروض ان هذا الولد يكون له ‹ . . ولكننا لم نر أولادا لمن زعموا انه ابن الله . . وعندما وقبلها يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد ؟ وماذا استجد على الله وعلى كونه بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون . . لم يتغير شيء فى الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة . . لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته . . ضمان للحياة ؟ الله حياته أزلية . . هو الذى خلق الحياة وهو الذى يهبها وهو حى لا يموت . . فما هى حاجته لأى ضمان للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تنفعل له الأشياء . . أى انه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلا . . وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس فى حاجة إلى أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخالق وبهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقا قبل أن يخلق أحدا من خلقه . . وكان رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه . . وكان قهارا قبل أن يوجد من يقهره . . وكان توابا قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وبهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه .

إذن كل هذا الكون لم يضف صفة من صفات الكمال إلى الله . . بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد.ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

(يا عبادي لَوْ أَنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيدٍ واحدٍ ، فسألونى ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسان مَسْأَلته ما نقص ذلك مِنْ ملكى شيئا إلا كما يَنْقُصُ المِخيطُ إذا غُمس فى البحر . .)[1] .

ثم إذا كان لله سبحانه وتعالى زوجة وولد . . فمن الذى وجد أولا ؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة وليسوا إلها واحدا . . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقا أو يكون إلها . . والكمال الأول لله لم يزده الولد شيئا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . . وحين يعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية يعرضها عرضا واسعا فى كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة مريم)

إنه سبحانه منزه عن التماثل مع خلقه . . لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال . . كل شيء تراه فى الوجود . . الله منزه عنه . . وكل شيء يخطر على بالك فالله غير ذلك . . قوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما فى السموات والأرض خاضع لله . .

قوله تعالى : « كل له قانتون » . . أى خاضعون ، وهذا يؤكد لنا أن كون الله فى قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله .

(١) رواه مسلم فى البر ، ورواه أحمد .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى . . أن قولهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله . . أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته . . فقال جل جلاله : « بديع السموات والأرض » . . أى خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق . . أى لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان . . ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابها لهم فى شكل أو حجم أو قدرة . . أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب .

إن الذى يصنع كوب الماء يصنع أولا قالبا يصب فيه خام الزجاج المنصهر . . فتخرج فى النهاية أكواب متشابهة . . وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولا ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج . . ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هى فى إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورة لما نريد . . والذى يخبز رغيفا مثلا قد لا يستخدم قالبا ولكنه يقلد شيئا سبق . . فشكل الرغيف وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدهما فى كل مرة . . ولكنه لا يستطيع أن يعطى التماثل فى الميزان أو الشكل أو الاستدارة . . بل هناك اختلاف فى التقليد ولا يوجد كمال فى الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة . . جعل الخلق متشابهين فى كل شيء . . فى تكوين الجسم وفى شكله فى الرأس والقدمين واليدين والعينين . . وغير ذلك من أعضاء الجسم . . تماثلا دقيقا فى الشكل وفى الوظائف . . بحيث يؤدى كل عضو مهمته فى الحياة . . ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كن . . ورغم التشابه فى الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين . . فبالعلم كل منا له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن

أن يميزها خبراء التسجيل . . وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة . . فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر . . وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا . . فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظها . وإن جئت بخلية من الجسد نفسه اتحد معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم . . فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص . . فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم . . وهذا هو الإعجاز فى الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله فى كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام فى القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادفة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو معد بقدرة الله سبحانه . . فيقول جل جلاله :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الروم)

هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله سبحانه فى الخلق على غير مثال . . فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله . . مع أنهم فى الشكل العام متماثلون . . ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم فى صورة واحدة . . وكل واحد منهم مختلف عن الآخر . . فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر . . هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « بديع » . . والدقة تعطى الحكمة . . والإبراز فى صور متعددة يعطى القدرة . . ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا فى التراب يجمعنا الله يوم القيامة . . والإعجاز فى هذا الجمع هو أن كل انسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التى كان عليها فى الدنيا . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته فى الإيجاد قد خلقنا .. وبطلاقة قدرته فى إعادة الخلق يحيينا بعد الموت .. بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا .. هل هناك دقة بعد ذلك ؟.

لو أننا أتينا بأدق الصناع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئا تجيده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لايمكن أن يصنع نموذجا مثله بالمواصفات نفسها ؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التى تمده بالمواصفات نفسها التى صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجا متشابها ولكن ليس مثل ماصنع تماما . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التى كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لايخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشىء : كن فيكون .

تقول الآية الكريمة « بديع السموات والأرض إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

« وكن » وردت كثيرا فى القرآن الكريم .. وفى اللغة شيء يسمى المشترك .. اللفظ يكون واحدا ومعانيه تختلف حسب السياق .. فمثلا كلمة قضى لها معان متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها .. مرة يأتى بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى .. فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج .. ومرة يقول سبحانه :

﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة طه)

والمعنى إفعل ماتريد .. وفى آية أخرى يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . . ومرة يصور الله جل جلاله الكفار فى الآخرة وهم فى النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾

(سورة الزخرف)

لِيَقْضِ علينا هنا معناها يميتنا . . ومعنى آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة ابراهيم)

أى لما إنتهى الأمر ووقع الجزاء . . وفى موقع آخر قوله سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة القصص)

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفى قوله تعالى :

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يونس)

أى حكم وفصل بينهم .. وقوله جل جلاله :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الإسراء)

بمعنى أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم .. إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق .. ولكن هناك معنى تلتقى فيه كل المعانى .. وهو قضى أى حكم وهذا هو المعنى الأم .

إذن معنى قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » .. أى إذا حكم بحكم فإنه يكون .. على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق : « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن » .. معنى يقول له أن الأمر موجود عنده .. موجود فى علمه .. ولكنه لم يصل إلى علمنا .. أى أنه ليس أمرا جديدا .. لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : « يقول له » .. كأنه جل جلاله يخاطب موجودا .. ولكن هذا الموجود ليس فى علمنا ولا نعلم عنه شيئا .. وإنما هو موجود فى علم الله سبحانه وتعالى .. ولذلك قيل أن لله أمورًا يبديها ولا يبتديها .. إنها موجودة عنده لأن الأقلام رُفِعَتْ ، والصحف جفت .. ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها .



﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

 ﴾

الحق سبحانه وتعالى حين قال : « الذين لا يعلمون » .. أى لا يعلمون عن كتاب الله شيئا لأنهم كفار .. وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله .. ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاما من الله سبحانه .. كما سمع موسى كلام الله .

وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى .. أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمداً رسولا ليبلغهم بمنهج السماء .. وكأن كل المعجزات التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ـ وعلى رأسها القرآن الكريم ـ لم تكن كافية لاقناعهم .. مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمى .. سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل .. جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية .. وكان ذلك يكفيهم لو انهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى .. والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقى عن الله .. لا يكلمه الله إلا وحيا أو إلهامَ خاطرٍ أو من وراء حجاب كما كلم موسى .. أو يرسل رسولا مبلغا للناس لمنهج الله .. أما الاتصال المباشر فهو أمر تمنعه بشرية الخلق .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « أو تأتينا آية » .. والآيات التى يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم .. لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرا وعنادا .. والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فالآيات التى يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون .. ولكن يزدادون كفرا حتى ولو علموا يقينا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لآل فرعون .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر .. والحق سبحانه يقول : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » .. فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة .. الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله .. ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة .. فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. لذلك قال الله تبارك وتعالى : « تشابهت قلوبهم » .. أى قلوب أولئك الذين كانوا خاضعين للمنهج والذين لا يخضعون لمنهج قد تشابهت بمنطق واحد .

ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لهان الأمر .. وقلنا جهلهم هو الذى أوحى إليهم بما قالوا .. ولكن ما عذر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أرنا الله جهرة .. إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابهت قلوبهم فى الهوى .. إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذى تصدر عنه دوافع الحركة .. ومادام القلب غير خالص لله فيستوى الذى يعلم والذى لا يعلم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .. ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية فى القلب استقراراً لا يحتمل شكا ولا زلزلة .. ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلى العقل .. لتناقش من جديد لأنه أصبح يقينا .. واليقين يأتى من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقينا .. فإذا قال الله قال اليقين .. وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق .. ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه .. عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه صُعد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس فى ليلة واحدة .. قال إن كان قد قال فقد صدق .

إن اليقين عنده نشأ من إخبار من يثق فيه وهذا نسميه علم يقين .. وقد يرتقى الأمر ليصير عين يقين .. عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حُدثت عن رؤية غيرك له .. ثم تدخل فى حقيقة الشيء فيصبح حق يقين .. إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به .. وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين .. وحق يقين هو أن تدخل فى حقيقة الشيء .. والله سبحانه وتعالى يشرح هذا فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾

(سورة التكاثر)

هذه هى المرحلة الأولى أن يأتينا علم اليقين من الله سبحانه وتعالى .. ثم تأتى المرحلة الثانية فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

أى أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة .. هذا علم يقين وعين يقين .. يأتى بعد ذلك حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين .. إنه سيراها وهو يمر على الصراط .. ولكن الكافر هو الذى سيصلاها حقيقة يقين .. ولقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين .. فاليهود قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .. والمسيحيون قالوا لعيسى : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » قال : «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » .. وهكذا شجع المؤمنون بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله ويطلبوا المعجزات المادية .



﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يخبرنا عن قضية من فعله . يأتى دائما بنون العظمة التى نسميها نون المتكلم .. ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت .. فكأن العظمة فى الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذى يصدره رئيس الدولة .. فيشترك فى تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب .. تشترك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار .. والله تبارك وتعالى عنده الكمال المطلق .. كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله سبحانه وتعالى .. فإذا تحدث الله جل جلاله عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى وتعالى يقول « إنا » :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحج)

ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد .. مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ولا يقول فاعبدنا . . إذن ففى كل فعل يأتى الله سبحانه بنون العظمة . . وفى كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتى بالمفرد . . وذلك حتى نفهم أن الفعل من الله ليس وليد قدرته وحدها . . ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها . . وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتى لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات فى الله . . لأنك قد تقدر ولا تعلم . . وقد تعلم ولا تقدر ، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق » يعنى بعثناك بالحق رسولا . . والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض . . فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكى ما رأيت رويت ما حدث . . فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فإنك ترويه بنفس التفاصيل . . أما إذا كنت تكذب فستتناقض فى أقوالك . . ولذلك قيل إن كنت كذوبا فكن ذكورا .

إن الحق لا يتناقض ولا يتغير . . ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل بالحق . . فإن عليه أن يبلغه للناس وسيبقى الحق حقا إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : « بشيرا ونذيرا » . . البشارة هى إخبار بشىء يسرك زمنه قادم . . والإنذار هو الإخبار بشىء يسوؤك زمنه قادم ربما استطعت أن تتلافاه . . بشير بماذا ؟ ونذير بماذا ؟ يبشر من آمن بنعيم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار . . والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يبلغ . . من آمن به كان بشارة له.ومن لا يؤمن كان إنذارا له .

ثم يقول الحق جل جلاله : « ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم » . . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن الذين سيلقون بأنفسهم فى النار والعذاب . إنه ليس مسئولا عن هداهم وإنما عليه البلاغ . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

فالله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسرا وقهرا . . ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر . . ولكنه تبارك وتعالى يريد أن نأتيه بقلوب تحبه وليس بقلوب مقهورة على الإيمان . . إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . . وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر . . لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه .

أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار . والجحيم مأخوذة من الجموح . . وجمحت النار يعنى اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جمحت النار . . أى أصبح لهيبها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبدا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم . . أنه لا يجب أن ينشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أنذرهم . . وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التى كلفه الله بها .



﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكيد فيقولون هادنا ، أى قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم . . أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم . . فقال الله سبحانه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . .

نلاحظ هنا تكرار النفى وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى . . ولو قال الحق تبارك وتعالى ، ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا . . لكان معنى ذلك انهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون . . ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى . . وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى . . وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود . .

ثم يقول الحق سبحانه : « حتى تتبع ملتهم » . . والملة هي الدين وسميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾

(سورة الكافرون)

فجعل لهم دينا وهم كافرون ومشركون . . ولكن ما الذى يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى . . الحق جل جلاله يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة آل عمران)

فاليهود حرفوا فى ملتهم والنصارى حرفوا فيها . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله . . والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق . . أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية . . وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال . . ولكن الهدى الذى يوصل للحق هو هدى واحد . . هدى الله عز وجل .

وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم » إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية . . والأهواء جمع هوى . . والهوى هو ما تريده النفس باطلا بعيدا عن الحق . . لذلك يقول الله جل جلاله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » . .

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج الملىء بالشهوات بغير حق . . سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعدما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولى يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك .

وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقف معه وقفة لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذى اصطفاه .. فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام .. فالمراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده .. وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى .. أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم .

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينا أن ما لم يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام .. لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه .. وذلك حتى لا يأتى بعد رسول الله من يدعى العلم .. ويقول نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا .. نقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد .

إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن اتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أى ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أى طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى .



﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا فى كتبهم .. وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته .. لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل .

ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتهما .. ويفكرون فى الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام .. وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال .. أى أن هناك عددا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون فى اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق .. وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون من سيناء مع جعفر بن أبى طالب ليشهدوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم قرأوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته .. وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب .. فقال جل جلاله :

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة البقرة)

أى يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل .. فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر .. ولا بالتحريف الذى هو نقل شىء من حق إلى باطل .

يقول الله تبارك وتعالى : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » . . ونلاحظ أن القرآن الكريم يأتى دائما بالمقارنة . . ليكرم المؤمنين ويلقى الحسرة فى نفوس المكذبين . . لأن المقارنة دائما تظهر الفارق بين الشيئين .

إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يحرفوه وآمنوا به . . ليصلوا إلى النعمة التى ستقودهم إلى النعيم الأبدى . . وهى نعمة الإسلام والإيمان . . مقابل الذين يحرفون التوراة والإنجيل فمصيرهم الخسران المبين والخلود فى النار .



﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ ﴾

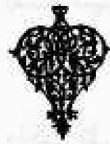
لو رجعنا إلى ما قلناه عندما تعرضنا للآية (٤٠) من سورة البقرة .. وقوله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » .. فالحق سبحانه وتعالى لم ينه الجولة مع بنى إسرائيل قبل أن يذكرهم بما بدأهم به .. إنه سبحانه لا ينهى الكلام معهم فى هذه الجولة .. إلا بعد أن يذكرهم تذكيرا نهائيا بنعمه عليهم وتفضيله لهم على كثير من خلقه .. ومن أكبر مظاهر هذا التفضيل .. الآية الموجودة فى التوراة تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام وذلك تفضيل كبير .

التذكير بالنعمة هنا وبالفضل هو تقريع لبنى إسرائيل أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه مذكور عندهم فى التوراة .. وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة ويسارعوا للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه تفضيل كبير من الله سبحانه وتعالى لهم .. والله جل جلاله قال حين أخذت اليهود الرجفة .. وطلب موسى عليه السلام من ربه الرحمة .. قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ

فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف)



﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة تشابهت مع الآية ٤٨ من سورة البقرة .. التى يقول فيها الله تبارك وتعالى :

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

نقول إن هذا التشابه ظاهرى .. ولكن كل آية تؤدى معنى مستقلا .. ففى الآية ٤٨ قال الحق سبحانه : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » .. وفى الآية التى نحن بصددها قال : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » .. لماذا ؟ لأن قوله تعالى « لا تجزى نفس عن نفس شيئا » .. لو أردنا النفس الأولى فالسياق يناسبها فى الآية الأولى .. ولو أردنا النفس الثانية فالسياق يناسبها فى الآية الثانية التى نحن بصددها .. فكأن معنا نفسين إحداهما جازية والثانية مجزى عنها .. الجازية هى التى تشفع .. فأول شىء يقبل منها هو الشفاعة .. فإن لم تقبل شفاعتها تقول أنا أتحمل العدل .. أى أخذ الفدية أو ما يقابل الذنب .. ولكن النفس المجزى عنها أول ما تقدم هو العدل أو الفداء .. فإذا لم يقبل منها تبحث عن شفيع .. ولقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا للآية ٤٨ من سورة البقرة .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يأتى الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام .. ليصفى الجدل والتشكيك الذى أحدثه اليهود عند تغيير القبلة .. واتجاه المسلمين إلى الكعبة المشرفة بدلا من بيت المقدس .. كذلك الجدل الذى أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتى نبى إلا منهم .

يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت .. فيقول الحق جل جلاله : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » .. ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم .. وإذ هنا ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط .. أما إذ فهى ظرف فقط .. وقوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » .. معناها اذكر وقت أن ابتلى الله إبراهيم بكلمات .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك .. لأن الابتلاء هو إمتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر .. فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . الذى ابتلى هو الله سبحانه .. هو

الرب .. والرب معناه المربي الذي يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه .. ومن أساس التربية أن يمتحن المربي من يربيه ليعلم هل نجح في التربية أم لا ؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة .. والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد .. كأن تقول مثلا محمد وتسكت .. وفي هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة .. والكلمة المرادة في هذه الآية هي التكليف من الله .

قوله سبحانه إفعل ولا تفعل .. فكأن التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدي مطلوبها أو لا تؤديه .. وقد اختلف العلماء حول الكلمات التي تلقاها إبراهيم من ربه .. نقول لهم ان هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبي الأنبياء .. إنها ابتلاء يجعله أهلا لحمل الرسالة .. أي لابد أن يكون الابتلاء كبيرًا .. ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة في سورة التوبة وهي قوله تعالى :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة التوبة)

وهذه رواية عبدالله بن عباس .. وعشرة ثانية في سورة المؤمنون . في قوله سبحانه :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ ﴾

(سورة المؤمنون)

وبعد ذلك قال : « أولئك هم الوارثون » .

وفى سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى سورة المعارج يقول :

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ
۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ

رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾

(سورة المعارج)

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا ولا تفعل كذا .. وابتلاه بأن ألقى فى النار وهو حى فلم يجزع ولم يتراجع ولم يتجه إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها .. وكونه يلقى فى النار ولا يبالى يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فيرد إبراهيم أما إليك فلا .. وأما إلى الله فعلمه بحالى يغنيه عن سؤالى .. وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله .. يقول الحق :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

أى وَفَّى كل ما طلب منه وأداه بعشق للمنهج ولابتلاءات الله .. لقد نجح إبراهيم عليه السلام فى كل ما ابتلى به أو اختبر به .. والله كان أعز عليه من أهله ومن نفسه ومن ولده .. ماذا كافأه الله به ؟ قال :

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن الحق تبارك وتعالى أئتمنه أن يكون إماما للبشر . . والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفى الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور . . استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ما هى الذرية ؟ هى النسل الذى يأتى والولد الذى يجىء . . لأنه يحب استطراق الخير على أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم فى الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون . . ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده . . حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدى بهم إلى نعيم لا يزول . . ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هى تقريع لليهود . . الذين تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فكأن إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية . . ولكن هذا لا ينتقل إلا للصالحين من عباده العابدين المسبحين .

وقول الحق سبحانه : « لا ينال عهدى الظالمين » مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأتى من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن العجائب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين . . الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان . . وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة فى ذرية هارون وليس فى ذرية موسى . . والرسالة ليست ميراثا . .

وقوله تعالى « لا ينال عهدى الظالمين » . . فكأن عهد الله هو الذى يجذب صاحبه أى هو الفاعل . . نأتى بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون . . بنوة الأنبياء غير بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء قيم وأبناؤهم هم الذين يأخذون منهم هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون . . ولو رجعنا إلى قصة نوح عليه السلام حين غرق ابنه . . رفع يديه إلى السماء وقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾

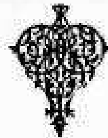
(من الآية ٤٥ سورة هود)

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء . . ولولا أن الحق سبحانه قال لنا « إنه عمل غير صالح » . . لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك . . ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلى أبيه بسبب « إنه عمل غير صالح » .



﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ
إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن
طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

وضحت لنا الآية التى سبقت أن اليهود قد انتفت صلتهم بإبراهيم عليه السلام .. بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلى ماديات الحياة .. أنتم تدعون انكم أفضل شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم .. إذن فأنتم غير مفضلين عليهم .. فإذا انتقلنا إلى قصة بيت المقدس وتحويل القبلة إلى الكعبة .. نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من يعبد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .. تأمل كلمة البيت وكلمة مثابة .. بيت مأخوذ من البيتوتة وهو المأوى الذى تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك .. ولذلك سميت الكعبة بيتا لأنها هى المكان الذى يستريح إليه كل خلق الله .. ومثابة يعنى مرجعا تذهب إليه وتعود .. ولذلك فإن الذى يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يجب أن يرجع مرات ومرات .. إذن فهو مثابة له لأنه ذاق حلاوة وجوده فى بيت ربه .. وأتحدى أن يوجد شخص فى بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته .. تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما فى صدرك من ضيق وهم وحزن ولا تتذكر أولادك ولا شئون دنياك ولو ظلت جاذبية بيت الله فى قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت .. ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة ..

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفى من عقل الحاج وقلبه .. لأن الحجيج فى

بيت ربهم .. وكلما كربهم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم فى بيته فيذهب عنهم الهم والكرب .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

أفئدة وليست أجساما وتهوى أى يلقون أنفسهم إلى البيت .. والحج هو الركن الوحيد الذى يحتال الناس ليؤدوه .. حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدى الفريضة .. والذى يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات .

إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلى بيت الله .. ليمحو الله سبحانه ما فى صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة .

وقوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » .. أمنا يعنى يؤمّن الناس فيه .. العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون حجاج بيت الله الحرام .. يلقى أحدهم قاتل أبيه فى بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج .

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتى إلى مكان ويجعله آمنا .. ويأتى إلى شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه لعلهم حين يذوقون السلام والصفاء يمتنعون عن القتال .

والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلى توضيح الفرق بين أن يخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله آمنا .. إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمّن من فيه .. الذى يطيع ربه يؤمن من فى البيت والذى لا يطيعه لا يؤمنه .. عندما يحدث هياج من جماعة فى الحرم اتخذته ستاراً لتحقيق أهدافها .. هل يتعارض هذا مع قوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » .. نقول لا ..

إن الله لم يعط لنا هذا كخبر ولكن كتشريع .. إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه .

وقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » . . وهنا نقف قليلا فهناك مَقام بفتح الميم ومُقام بضم الميم . . قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأحزاب)

مَقام بفتح الميم إسم لمكان من قام . . ومُقام بضم الميم إسم لمكان من أقام . . فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مُقام بضم الميم . . وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام بفتح الميم . . إذن فقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » بفتح الميم اسم المكان الذى قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذى وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ لأنهم كانوا يتحرجون عن الصلاة فيه . . فالذى يصلى خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة . . وكان المسلمون يتحرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذى فيه مقام إبراهيم . . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك . . ولما رأى عمر مكانا فى البيت ليس فيه صلاة يصنع فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت . . فنزلت الآية الكريمة : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى . . فكأنه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم فى مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة . . وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعبادة وإتمامها على الوجه الأكمل ، والمقام سيعطينا حيثية الإتمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونتفهمها . . فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . . والترتيب الزمنى للأحداث هو أن البيت وُجد أولا . . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود فى موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة ؛ فقصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . متى بنى البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأنا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والاعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله ارتفاع . . ومادامت مهمة إبراهيم هى رفع القواعد فكأن هناك طولا وعرضا للبيت وان إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع . . إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم . . ثم جاء الطوفان الذى غمر الأرض فى عهد نوح فأخفى معالمه . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هى البيت ولكنها هى المكين الذى يدلنا على مكان البيت . . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » . . بمعنى ان إبراهيم هو الذى بنى البيت . . نقول لهم ان البيت كان موجودا قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم اقتصرت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . . من يصلى على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجوّ الكعبة . . ومن يصلى فى الدور الأسفل يصلى أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها

إسماعيل وتركها فى بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة فى ذلك الوقت . . ذكر البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى فى دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلها الرضيع :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

يعنى أن البيت كان موجودا وإسماعيل طفل رضيع . . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافعا يستطيع أن يعاون أباه فى بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبنى إبراهيم عليه السلام الكعبة . . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع له العلامة التى تدل الناس عليه . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء فى القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ ﴾

(سورة آل عمران)

والكلام هنا عن البيت، والقول إنه وضع للناس. والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة . . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضعه وحدده ، وعدل الله يأبى إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلى الأرض شرع التوبة وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفى أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر .. ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكليف .. فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب ويتحايل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه .

إن الحجر الموجود فى مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه ومحاولته أن يزيد عليها . وإن الحجر الذى كان يقف عليه ابراهيم به حفر على شكل قدميه .. وهما بين قائل أن الحجر لان تحت قدمى إبراهيم من خشية الله .. وبين قائل إن إبراهيم هو الذى قام بحفر مكان فى الحجر على هيئة قدميه .. حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ما يمكن ليعلى القواعد من البيت كان توازنه محفوظا .

وقوله تعالى : « طهرا بيتى » دليل على أن البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذبحت فيه الذبائح وألقيت المخلفات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا لثلاث طوائف : « الطائفين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشىء .. ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالليل طوافة لأنهم يطوفون فى الشوارع فى أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة القلم)

وهذه هى قصة الحديقة التى منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حق الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها .. أى مشى فى كل جزء منها فأحرق أشجارها .. فالطائف هو الذى يطوف .. « والعاكفين » هم المقيمون « والركع السجود » هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه .. وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد فى الأرض حتى قيام الساعة .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ
قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » . . ومادام الله قد جعله أمنا فما هى جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن فى البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف ؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلداً آمنا » . . أى يارب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه

موجود فى واد غير ذى زرع . . وكانت الناس فى الماضى تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان فى الطريق . . أو آمنا أى أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : « اجعل هذا بلدا آمنا » تكررت فى آية أخرى تقول : « اجعل هذا البلد آمنا » . . فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة . . نقول إن إبراهيم حين قال : « رب اجعل هذا البلد آمنا » . . طلب من الله شيئين . . أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسات . . فكلمة غصب تعنى سلخ الجلد عن الشاة وكأن من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلخه منه بينما هو متمسك به .

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة . . والبلد هو البقعة تنشأ فى الجلد فتميزه عن باقى الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء فى الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التى ظهرت مميزة ببياض اللون . . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . . فإذا أقمت فيه مبانى جعلت فيه علامة تميزه عن باقى الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : « وارزق أهله من الثمرات » . . هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس فى هذا البلد . . ولكن إبراهيم قال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . . لماذا ؟ لأنه حينما قال له الله :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال إبراهيم :

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فخشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقيمون فى مكة أن تكون إستجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة .. كأن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون. فاستدرك إبراهيم وقال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » .. ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية .. فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر. لأن الله هو الذى استدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا .. وكأن الحق سبحانه حين قال : « لا ينال عهدى الظالمين » .. كان يتحدث عن قيم المنهج التى لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر .. لذلك قال الله سبحانه : « ومن كفر » .. وفى هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا. والخير فى الدنيا على الشيوع . فمادام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقى على أرض المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك ظالم وإنما أعطى نعمة استبقاء الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر .. ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى : « ومن كفر فأمتعه قليلا » .. التمتع هو شىء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

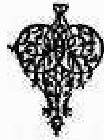
وقوله تعالى : « فأمتعه » دليل على دوام متعته ، أى له المتعة فى الدنيا. ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة .. إذن التمتع فى الدنيا بأشياء متعددة . ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل .. لأن المتعة فى الدنيا مهما بلغت وتعدّدت ألوانها فهى قليلة .

واقرأ قوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار » . . ومعنى أضطره أنه لا اختيار له فى الآخرة ، فكأن الإنسان له اختيار فى الحياة الدنيا يأخذ هذا ويترك هذا ولكن فى الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلا أن يختار الجنة بل إن أعضاءه المسخرة لخدمته فى الحياة الدنيا والتى يأمرها بالمعصية فتفعل ، لا ولاية له عليها فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن الجوارح التى كانت تطيع الكافر فى المعاصى فى الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ؛ فاللسان الذى كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتى يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التى كانت تمشى إلى أماكن الخمر واللهو والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التى كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها. وقوله : « أضطره » معناه إن الإنسان يفقد اختياره فى الآخرة ثم ينتهى إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقا لقوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » . . أى أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب فى الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون .



﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت . . وجاءت « يرفع » هنا فعلا مضارعا لتصوير الحدث الآن وفى المستقبل .

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم انه رفع وانتهى ؟ طبعا هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت . . والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلما حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » . . ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحايل ويأتى بالحجر .

إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء . . ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التى سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التى يتحملها الإثنان - هما سعيدان . . وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة مواجهة . . أى أنهما يسألان الله فى موقف المعرض عن عمله ، إنهما لا يريدان إلا الثواب : « تقبل منا » أى اعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذا لأمرك .

وقوله تعالى : « إنك أنت السميع العليم » . . أى أنت يارب السميع الذى تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . . « والعليم » . . العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا

لك .. وإننا نفعل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك .. ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملا واحدا.أحدهما يثاب لأنه يعمله إرضاء لله وتقربا منه والآخر لا يثاب لانه يفعله من أجل الدنيا .

والله سبحانه وتعالى عليم بالنية فإن كان العمل خالصا لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصا لوجهه لا يتقبله .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] . إذن فالعمل إن لم يكن خالصا لله فلا ثواب عليه .



(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة وأبو نعيم في الحلية والدارقطني بألفاظ مختلفة .

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

هناك فرق بين أن تُكلَّف بشيء فتفعله بحب ، وأن تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذى ألقى عن كاهله عبء التكليف . . فى هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل وكانا يقولان يارب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نذوق حلاوة التكليف منك مرات ومرات . . « ربنا واجعلنا مسلمين لك » نسلم كل أمورنا إليك .

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهى من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان إستمتاعا فى التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه . . كلما عمل شيئا استحضر النعيم الذى ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما . . فيقولان : « ومن ذريتنا أمة مسلمة » . . ليتصل أمد منهج الله فى الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة . . ثم يقولان : « وأرنا مناسكنا » . . أى بين لنا يارب ما تريده منا . بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك . . والمناسك هى الأمور التى يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها .

وقوله : « وأرنا مناسكنا » ترينا أن إبراهيم يرغب فى فتح أبواب التكليف على

نفسه ، لأنه لا يرى فى كل تكليف إلا تطهيرا للنفس وخيرا للذرية ونعيما فى الآخرة . . ولذلك يقول كما يروى لنا الحق : « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . . وتب علينا ليس ضروريا أن نفهمها على أنها توبة من المعصية . . وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا فى المعصية فيريدان التوبة إلى الله . . وإنما لأنهما علما أن من سيأتى بعدهما سيقع فى الذنب فطلبا التوبة لذريتهما . . ومن أين عَلِما ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » . .

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما . . والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من احدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة . . لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمنا - ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدا عن المعاصى . . ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات . . وقلنا ان تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير . . لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا فى النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا . . ولأصيب المجتمع كله بشرورهم ولَيَئِسَ الناس من آخرتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[1] .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .



(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه والدارمى فى سننه والحاكم فى مستدركه .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده .. بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة « رسولا منهم » ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم .. ونحن نقول لهم ان جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق.ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق .. ولا حجة لما تدعونه من أن الله فَضَّلكم واختاركم على سائر الشعوب .. إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم فى الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم ان هذا النبى من نسل إبراهيم وانه ينتمى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : « يتلو عليهم آياتك » .. أى آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هى أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبقه وتعرف من أين جاءت .. وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم

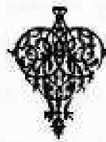
فإن الحكمة هى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قال الحق سبحانه وتعالى فيها فى خطابه لزوجات النبى :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وقوله تعالى : « ويزكيهم » أى ويطهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان .

وقوله جل جلاله : « إنك أنت العزيز الحكيم » . . أى العزيز الذى لا يغلب لجبروته ولا يسأله أحد . . « والحكيم » الذى لا يصدر منه الشىء إلا بحكمة بالغة .



﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

مـاملة إبراهيم ؟ إنها عبـادة الله وحده لاشريك لـه وعشق التكاليف ؛ فإبراهيم وَفَّى كل ما كلفه به الله وزاد عليه .. وقابل الابتلاء بالطاعة والصبر .. فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدى التكاليف بعشق ويحاول أن يستبقى المنهج السليم فى ذريته .

قوله تعالى : « ومن يرغب » يعنى يعرض ويرفض . ويقال رغب فى كذا أى أحبه وأراده . ورغب عن كذا أى صَدَّ عنه وأعرض .. والذين يصدُّون عن ملة إبراهيم ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء الجهلة ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى : « إلا من سفه نفسه » .. دليل على ضعف الرأى وعدم التفرقة بين النافع والضار .. فعندما يكون هناك من ورثوا مالاً وهم غير ناضجى العقل لا يتفق عقلهم مع سنهم نسميهم السفهاء .. والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته على ماله إلى ولى أو وصى ، لأنه بِسَفَهِهِ غيرُ قادر على أن ينفق المال فيما ينفع ..

والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علاجا دقيقا فيقول :

﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمى أموال السفهاء بأموال الولى ولم يعتبرها مال السفيه لأنه ليس أهلا للقيام عليها . . وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون الولى أو الوصى حريصا عليها كمَالِهِ أو أكثر ولكن هو قيم فقط . . فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفيه من سفاهته يرد إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف فى أموالهم . . ثم يأخذون هذه الأموال ويبعثرونها هم . . والذى يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له فى إنفاق المال وتبذيره لحسابه الخاص ، ولكنّ هناك حكمين :إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف . . وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله فى الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا . . أما أن يأخذ المال ويبعثره على نفسه وشهواته وعلى زوجته وأولاده فهذا مرفوض ويحاسب عليه . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إذن الذى يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » . . اصطفاه فى الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالابتلاء . . وكثير من الناس يظن ان ارتفاع مقامات بعضهم فى أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية فى الآخرة . . نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » . . وأضاف : « وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » . . لنعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية فى الدنيا ونعيم فى الآخرة أى الاثنين معا .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت . . إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه . . ولم يقل الحق أسلم إلىّ لأنها مفهومة . ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله ـ لأنه هو سبحانه المأمون علينا . . على أن إبراهيم عليه السلام قال فى رده : « أسلمت لرب العالمين » .

ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده فى الكون ـ لأنه إذا أسلم لله الذى سخر له ما فى السموات والأرض . . يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان . . ومَنْ أكثرُ نضجاً فى العقل ممن يُسلم وجهه لله سبحانه . . لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوى لا يقهر ، قادر لا تنتهى قدرته . . غالب لا يغلب ، رزاق لا يأتى الرزق إلا منه . فكأنه أسلم وجهه للخير كله .

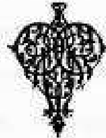
والدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو إسلام الوجه لله ، ولماذا الوجه ؟ لأن الوجه أشرف شىء فى الإنسان يعتز به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته . . ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله فى الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض . . وهذا منتهى الخشوع والخضوع أن تضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلانا لخضوعك لله سبحانه وتعالى .

والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله . . بأن يجعل اختياراته فى الدنيا لما يريده الله تبارك وتعالى . . فإذا تحدث لا يكذب ، لأن الله يحب الصدق ،

وإذا كلف بشيء يفعله لأن التكليف فى صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا . . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة فى الآخرة وبقدرة الله .

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته فى الحياة الدنيا طبقا لما أراده الله . . وفى هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله وتجد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوى يمكن أن يضعف ، وعلى غنى يمكن أن يفتقر . . وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له . ولذلك فهو فى هذه الحالة يتصف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع .



﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

عندما تقرأ كلمة وصي فاعلم أن الوصية تأتى لحمل الإنسان على شيء نافع فى آخر وقت لك فى الدنيا ، لأن آخر ساعات الإنسان فى الدنيا إن كان قد عاش فيها يغش الناس جميعا فساعة يحتضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية هى عظة تحب أن يستمسك بها من تنصحه وتقولها له مخلصا فى آخر لحظة من لحظات حياته .. ولذلك سيأتى الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك فى قوله :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة).

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب .. وأن حب الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا .. ونحن لا نتمنى أن يكون فى الدنيا من هو أحسن منا إلا أبناءنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصّى إبراهيم بنيه، ويعقوب وصى بنيه .. وكانت الوصية « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين » إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب.ولكن كانت أمرا إختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا

أولادهما إلا بما اختاره الله . . فكأن إبراهيم ائتمن الله على نفسه فنفذ التكاليف وائتمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

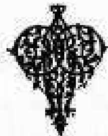
قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » . . إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب . . ويعقوب هو الأب المباشر لليهود . . ويعقوب وصاهم كما يروى لنا القرآن الكريم : « يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تَموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون » . .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان فى امكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان فى إمكانه أن ينفذه . . فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت لا يملكه أحد . . إنه يأتى فى أى وقت فجأة . . ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه : « لا تموتن إلا وأنتم مسلمون » فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه . . ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس فى أى سن وفى أى مكان وفى أى زمان . . ولذلك قد نلتمس العافية فى أشياء يكون الموت فيها . . والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أسبابه

أى إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء . . أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا فى الموت ، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك . . فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يغفل عنه أبدا . . حتى لا يأتيه الموت فى غفلته فيموت غير مسلم ..والعياذ بالله .



﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم .. يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون » ..

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون .. وتأمل دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : « نعبد إلهك وإله آبائك » .. فكأنه لم يحدث بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه وتعالى الواحد .. ولذلك قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : « إلها واحداً » .. وسنأخذ من هذه الآية لقطة تفيدنا فى أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض فى قصة إبراهيم انه تحدث مع أبيه فى شئون العقيدة .. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الانعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم .. والرسول عليه الصلاة والسلام قال :

(أنا سيد ولد آدم)[١] .

فإذا كان آزرُ أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام .. فكيف تصح سلسلة النسب الشريف ؟ نقول إنه لو أن القرآن قال « وإذ قال إبراهيم لأبيه » وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم .. ولكن قول الله : « لأبيه آزر » .. جاءت لحكمة . لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس هو الأب ولكن العم .. فأنت إذا دخلت منزلا وقابلك أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطىء الطفل فيه .. ولكن إذا كنت تقصد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود ؟ فأنت فى هذه الحالة تقصد العم ولا تقصد الأب .. لأن العم فى منزلة الأب خصوصا إذا كان الأب متوفيا .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « لأبيه آزر » بذكر الاسم فمعناه لعمه آزر .. فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن فى هذه الآية الكريمة : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك » .. والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب .. وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب واسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل إسحق .

إذن ففى هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحق .. ويعقوب الذى حضره الموت هو ابن اسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا آباهم قالوا آباءك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد .. وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم واسحق أبو يعقوب وأطلقوا عليهم جميعا لقب الأب .. فكأن إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد وإسحق أطلق عليه الأب وهو الأب .. فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر)[٢] .

(١) أخرجه الإمام مسلم .

(٢) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس .

يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أنا سيد ولد آدم)[١] .

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام . . نقول له لم يكن آزر أبا لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم « لأبيه آزر » وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة اسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسماعيل كان مقيما فى مكة بعيدا عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمنى لأن إسماعيل أكبر من اسحق بأربعة عشر عاما . .

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم . .

والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتنبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يلفتنا أيضا إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعنى تعدد الآلهة . . لذلك قال سبحانه : « إلها واحدا » . .



(١) أخرجه الإمام مسلم .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

وقوله تعالى : « خلت » أى انفردت. وخلا فلان بفلان أى انفرد به .. وخلا المكان من نزيله أى أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما بالآخر .. الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة البقرة)

أى إنفردوا هم وشياطينهم ولم يعد فى المكان غيرهم ، ولقد قلنا إن كل حدث لابد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان ويحتاج إلى مكان .. فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « تلك أمة قد خلت » فمعناه إنه إنقضى زمانها وإنفرد عن زمانكم .

والمقصود بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت » أى انتهى زمانها .. وتلك إسم إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هى المشار إليه، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين .. والله سبحانه وتعالى حين يقول : « تلك أمة » فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا .. ولذلك لابد أن يخاطبها بالوحدة .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب .. هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة .

وقوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. أى تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

وإبراهيم فرد وليس جماعة ؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا فى أمة .

وقوله تعالى : « قد خلت » يراد بها إفهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسبا كاذبا لأن نسب الأنبياء ليس نسبا دمويا أو جنسيا أو انتماء .. وإنما نسب منهج واتباع .. فكأن الحق يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب .. لأن نسب النبوة هو نسب إيمانى فيه اتباع للمنهج والعقيدة .. ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. الكسب يؤخذ على الخير والاكتساب يؤخذ فى الشر لأن الشر فيه افتعال .

اننا لابد أن نلتفت ونتنبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن فى القرآن .. فلا يوجد معنى لآية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم .

يأتى بعض المستشرقين ليقول هناك آية فى القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطى بالأنساب وذلك فى قوله جل جلاله :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّن

﴿ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : « ألحقنا بهم ذريتهم » كلمة ألحقنا تأتى عندما تلحق ناقصا بكامل . . فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما لآبائهم المؤمنين . . نقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر . . الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفانوا فى العمل والأبناء ربما قصروا قليلا . . ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أى لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين . . ولكن غير المؤمنين مبعدون ليس لهم علاقة بآبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر . . فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة . . والأبناء لهم أعمال حسنة أقل . . ينزل الله الأبناء فى الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد .

وقوله تعالى : « وما ألتناهم » أى أنقصناهم من عملهم من شيء . . إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله بفضله يلحق الأبناء بالآباء .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » . . هذه عملية الإيمان فى العقيدة . . قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ ﴾

(سورة النجم)

فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون سعى ؟ نقول افهموا النصوص جيدا . قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذى يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده ، وهذا يعطى بلا حساب . . ثم من الذى قال

إن هذا ليس من سعيهم ؟ إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لآبائهم تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الأبناء .

ولقد روى لنا العلماء أن ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا على نفسه . . فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنسه . . فتعجب الإبن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله : كيف وصلت لهذه المنزلة ؟ فقال الأب أى منزلة . . قال الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين . . فقال الأب وهل فهمت انها نعيم لى . . قال الابن نعم . . فقال الأب: لا،أنا عقوبة لها . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

إذن أنت فى الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح . . مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدْخِلَ الجنة أحداً عَمَلُه ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته)[1] .

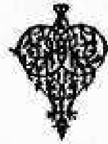
ربما يأتى أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعى منها . . إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله . . وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها ؟.

نقول،مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة . وهل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله ؟ هى داخلة فى عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذى دفعك للصلاة عليه . . والذى تدعو له بالخير وبالرحمة وبالمغفرة ويتقبلها الله . . أيقال انه أخذ غير عمله ؟ لا،إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه . . ولكنك لا تدعو مثلا

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد فى مسنده .

لإنسان أخذ بيدك إلى خمارة أو إلى فاحشة أو إلى منكر .. بل تدعو لمن أعطاك خيرا فإن استجاب الله لك فهو من عمله .

الله سبحانه وتعالى يقول إن ما كان يعمله من سبقكم من الأمم لا تسألون عنه .. وإن كنتم تدعون ان إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم .. السؤال يكون عن عملكم .



﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

عندما تأتى ـ قالوا ـ فمعناها إن الذين قالوا جماعة .. الذين قالوا هم اليهود والنصارى.ولكن كلا منهم قال قولا مختلفا عن الآخر .. قالت اليهود كونوا هودا. وقالت النصارى كونوا نصارى ..

ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون.ويقابل كل هؤلاء المؤمنون .. « وقالوا كونوا » من المقصود بالخطاب ؟ المؤمنين .. أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والنصارى كونوا هودا .. وقالت النصارى لليهود والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى .. لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا فى نفسه .. ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة،وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح .. وكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك ان الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقوده بين الله سبحانه وبين كل مؤمن .. ولذلك تجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ﴾

(من الآية ٢٨٥ سورة البقرة)

ونلاحظ أن المشركين لم يدخلوا فى القول لأنهم ليسوا أهل كتاب .

قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفا » . . أى رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنني سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفية . . وهم لا يمكن أن يخالفوا فى إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم . . والنصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم ينفوا عنه النبوة ولكن كلا منهم أراد أن ينسبه لنفسه .

ما معنى حنيفا ؟ إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوى . . الحنف ميل فى القدمين أن تميل قدم إلى أخرى . . هو تقوس فى القدمين فتميل القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف . . ولكن كيف يؤتى بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصراط المستقيم ؟

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عندما تعم الغفلة منهج الله . . لأنه مادام وجد من أتباع الرسول من يدعو إلى منهجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون هناك خير .

النفس البشرية لها ألوان . . فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير . . ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهى التى لا تعيش إلا فى الشر تأمر به وتغرى الآخرين بفعله . . إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أمارة بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

تتدخل السماء برسول يعالج اعوجاج المجتمع . . ولكن الله تبارك وتعالى وضع عنصر الخيرية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ١١٠ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد ائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج .. ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلن يأتى رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

نعود إلى قوله تعالى حنيفا .. قلنا إن الحنف هو الاعوجاج .. ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال .. والرسل لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل فى المجتمع .. ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال .. لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال ..

وقوله تعالى : « حنيفا » تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال .. والهداية عند اليهود والنصارى مفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشرا يهدى بشرا .. والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ولقد تعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه .. وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا حقا ولم يكن مشركا ..



﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيرا لقوله تعالى : « ملة إبراهيم » .. إيمان بالله وحده لا شريك له .. إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى أى التوراة وما أوتى عيسى أى الإنجيل وما أوتى النبيون بالإجمال .. فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدبر وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد .. وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا تقبله .

قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » وهو القرآن الكريم. ولا يمكن أن يعطف عليه ما يصطدم معه .. ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط هذه ملة إبراهيم .. وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحى الله إليه .. والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعبادة الله الواحد الأحد الذى لا شريك له .

وقوله تعالى : « ونحن له مسلمون » .. أى ان إبراهيم كان مسلما وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر .. ومعنى الإسلام أن هناك مسلما ومسلما إليه وهو الله عز وجل. ونحن نسلم له فى العبودية ـ سبحانه ـ وفى اتباع

منهجه . . والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولمن لا هوى له . . فإن تشككت فى أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخيل . . وأنت لا تسلم زمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه غنى عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلى ما فى يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾

نقول إن السؤال الذى يطرح نفسه بالنسبة لهذه الآية . . هل لما آمنا به مثل حتى يؤمنوا به ؟ إنك لكى تؤمن لابد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل إذا قالها أحد بعدك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته ؟ يكون قال مثل ما قلت.أى إننى حين أعلن إيمانى وآخذ الشهادة التى قلتها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقت به لا يفارقك أنت . . ولكنى إذا صنعت شيئا وقلت لغيرى إصنع مثله،هو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعته أنا .

الشيء نفسه حين تقول لى : تصدق بمثل ماتصدق به فلان . لن تكون الصدقة هى المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان غيرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أى أن يعلنوا إيمانهم مثلنا بالله ورسوله . . فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه فى الإيمان . فالمثلية هنا فى العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

يقول الحق تبارك وتعالى : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » أى اهتدوا إلى الحق . . « وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » وتولوا يعنى أعرضوا . وشقاق يعنى خلافا معكم وخلافا مع بعضهم البعض ، فلكل منهم وجهة نظر يدعيها،وهداية اخترعها . . حتى إذا التقوا فى الكفر فلن يلتقوا فى أسباب الكفر كل واحد إتخذ سببا ولذلك اختلفوا . . والشقاق من المشقة والنزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين .

وقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله » أى لا تلتفت إلى معاركهم ولا إلى حوارهم فالله يكفيك بكل الوسائل عمن سواه واقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الزمر)

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يكفيك لأنه عليم سميع بصير لا يخفى عليه شيء . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذاءه بالسحر فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفى منه وأطلع رسوله عليه . . فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيكفيك الله شرها ولذلك قال تعالى : «فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » . . أى سميع بما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما فى صدورهم قبل أن ينطقوا به . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفلت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه ، وكل كيد قبل أن يتم هو محبطه . فإذا كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى ؟ وممن تخاف ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يصل إليك ؟ . وأنت معك خالق هذا الكون ومدبره الذى لا يخفى عليه شيء فى السموات ولا فى الأرض . . عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . ومادام معك القوى الذى لا يضعف أبدا والحى الذى لا يموت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخش أحدا لأنك فى أمان الله سبحانه .



﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

ما هى الصبغة ؟ الصبغة هى إدخال لون على شىء بحيث يغيره بلون آخر . . تصبغ الشىء أحمر أو أزرق أو أى لون تختاره . والصبغ ينفذ فى المصبوغ خاصة إذا كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . . ولذلك فإن الألياف الصناعية لا يمكن أن تصبغ لماذا ؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة فى تركيبها .

وإذا جئنا بقنديل من الزيت ووضعنا فيه فتيلا من القطن بحيث يكون رأس الفتيل فى الزيت ثم تشعله من أعلاه نجد أن الزيت يسرى فى الأنابيب ويشعل الفتيل . . فإذا جربنا هذا فى الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسرى فيها الزيت وإنما النار تأكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . . ولذلك تجد الألياف الصناعية سهلة فى الغسيل لأن العرق لا يدخل فى مسامها بينما الملابس القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والتراب .

إذن الصبغة لابد أن تتدخل مادتها فى مسام القماش . . أما الطلاء فهو مختلف . إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيلها . . ولذلك فإن الذين يفتون فى طلاء الأظافر بالنسبة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . . الحناء صبغة تتخلل المادة الحية وتبقى حتى يذهب الجلد بها أى لا تستطيع أن تزيلها عندما تريد . . ولكن الطلاء يمكن أن تزيله فى أى وقت ولو بعد إتمامه بلحظات . . إذن فطلاء الأظافر ليس صبغة .

قوله سبحانه : « صبغة الله » فكأن الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على

رسله هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري . . ولماذا كلمة صبغة ؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله . . إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(١) .

فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة . . إنها صبغة الله . . فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة.وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أي يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية . . هذا هو معنى صبغة الله .

ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا . . هذا الاختلاف في اللون من صبغة الله . . اختلاف ألوان البشر ليس طلاء وإنما في ذات التكوين . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر ، هذه هي صبغة الله . . وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطى صبغة.لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان وإنما يأتي من داخله . . ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشري.واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

هذا هو التأثير الذى يضعه الله في القلوب . . أمر داخل وليس خارجيا . . أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله . . ونقول لهم : لا.هذا الطلاء من عندكم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله . .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه .

وقوله تعالى : « ومن أحسن من الله صبغة » . . استفهام لا يمكن أن يكذبوه ولكن الجواب يأتى على وفق ما يريده السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن من الله صبغة .

وقوله تعالى : « ونحن له عابدون » أى مطيعون لأوامره والعابد هو من يطيع أوامر الله ويجتنب ما نهى عنه .

والأوامر دائما تأتى بأمر فيه مشقة يطلب منك أن تفعله والنهى يأتى عن أمر محبب إلى نفسك هناك مشقة أن تتركه . . ذلك ان الإنسان يريد النفع العاجل ، النفع السطحى ، والله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى النفع الحقيقى . . النفع العاجل يعطيك لذة عاجلة ويمنعك نعيما دائما فى الأخرة وتمتعا بقدرات الله سبحانه وتعالى . .

وأنت حين تسمع المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك لذة عاجلة كأن تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو بلعب الطاولة أو بغير ذلك . . وتترك ذلك النفع الحقيقى الذى يقودك إلى الجنة . . ولذلك قال الله سبحانه :

﴿إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾

(من الآيتين ٤٥ - ٤٦ سورة البقرة)

إذن العبادة أمر ونهى . . أمر يشق على نفسك فتستثقله ، ونهى عن شيء محبب إلى نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله . .

إذن فقوله تعالى : « ونحن له عابدون » . . أى مطيعون لأوامره لأننا آمنا بالآمر إلها وربا يعبد . . فإذا آمنت حبب الله إليك فعل الأشياء التى كنت تستثقلها وسهل عليك الامتناع عن الأشياء التى تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة . . هذه هى صبغة الله التى تعطينا العبادة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ

﴿... إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾

(سورة الحجرات)

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى بصبغة الإيمان يحبب إلينا الخير ويجعلنا نبغض الشر .. لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التي تتخلل الشيء وتصبح هي وهو شيئا واحدا لا يفترقان ..



﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

تحديد الأمر بِقُلْ إيقاظ لمهمة التكليف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام ـ قل ـ كان يكفي أن يقول ما يريده سبحانه .. فأنت إذا قلت لابنك اذهب إلى أخيك وقل له أبوك يأمرك بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل .. ولكن خطاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتنا إلى أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هى البلاغ .

إن تكرار كلمة « قل » فى الآيات هى نسبة الكلام المقول إلى عظمة قائله الأول وهو الله تبارك وتعالى .. فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن قائله هو الله جل جلاله .

قوله تعالى : « قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم » .. المحاجة معناها حوار بالحجة ، كل من المتحاورين يأتى بالحجة التى تؤيد رأيه أو وجهة نظره .. وإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى قال كل منهما حجته .. ولابد أن يكونا خصمين كل منهما يعاند رأيه الرأى

الآخر وكل يحاول أن يأتى بالحجة التى تثبت صدق كلامه فيرد عليه خصمه بالحجة التى تهدم هذا الكلام وهكذا .

قوله تعالى : « أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم » . . ومادام الله رب الجميع كان من المنطق أن نلتقى لأنه ربى وربكم حظنا منه سواء . . ولكن مادامت قد قامت الحجة بيننا فأحدنا على باطل . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل وباطل . . لأن هناك حقا واحدا ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل . . فمادامت المحاجة قد قامت بيننا وبينكم ونحن على حق فلابد أنكم على باطل . . وليحسم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ويمنع الجدل والجدال قال سبحانه : « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » . . أى لا نريد جدلا لأن الجدل لن يفيد شيئا . . نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله . . ونحن أخلصنا العبادة لله وحده وأنتم اتجهتم بعبادتكم إلى ما تحبه أهواؤكم .

إن الله سبحانه وتعالى الذى هو ربنا وربكم لا يفضل أحدا على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله . . ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولا وقد يكون العمل واحدا أمام الناس . . هذا يأخذ به ثوابا وذلك يأخذ به وزرا وعذابا فالمهم هو أن يكون العمل خالصا لله .

قد يقول إنسان إن الإخلاص فى العمل والعمل مكانه القلب . . ومادام الإنسان لا يؤذى أحدا ولا يفعل منكرا فليس من الضرورى أن يصلى مادامت النية خالصة . . نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات)[1] .

فلابد من عمل بعد النية .. لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس .. فإذا كان فى نيتك أن تتصدق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك .. ولكن إذا لم يكن فى نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو لترضى بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يقترن عملك بنية الإخلاص لله .. والعمل حركة فى الحياة.والنية هى التى تعطى الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾

(سورة البقرة)

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق .. والفقير سينتفع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق .. أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفى صدقتك .. فالعمل يفعل فينتفع به الناس سواء أردت أم لم ترد .

أنت إذا قررت أن تبنى عمارة ، النية هنا هى التملك.ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذى باع لك قطعة الأرض والذى أعد لك الرسم الهندسى وعمال الحفر والذى وضع الأساس ومن قام بالبناء وغيرهم وغيرهم .. هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم .. سواء أكان فى بالك الله أم لم يكن فى بالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد .. ولكن الله لا يجزى على الأعمال باطلاقها وإنما يجزى على النيات باخلاصها .. فإن كان عملك خالصا لله جزاك الله عليه .. وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم كشفاً هاماً للبشرية ولكنه لم يكن مؤمنا بالله .. يتعجبون أيعذب فى النار ؟ نقول نعم لأنه عمل وليس فى قلبه الله .. ولذلك يجازى فى الحياة الدنيا ، فتقام له التماثيل ويطلق اسمه على الميادين ويخلد اسمه فى الدنيا التى عمل من أجلها .. ولكن مادام ليس فى نيته الله فلا جزاء له عند الله .

(١)أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية والدارقطنى بألفاظ مختلفة .

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

اليهود والنصارى إدعوا أن الأنبياء السابقين لموسى وعيسى كانوا يهودا أو نصارى . فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا . والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى ، الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله : « قل أأنتم أعلم أم الله » .

والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم من الله . . وقلنا إنه إذا طرح سؤال فى القرآن الكريم فلابد أن يكون جوابه مؤيدا بما يريده الحق سبحانه وتعالى ولا يوجد له إلا جواب واحد . . ولذلك فإن قوله تعالى : « أأنتم أعلم أم الله » . . والله لاشك أعلم وهذا واقع .

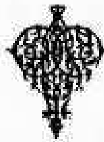
إذن فكأن الله بالسؤال قد أخبر عن القضية . . ولكن يلاحظ فى هذه الآية الكريمة ذكر إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط . . وفى ذكر إسماعيل دائما مع اسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيمانى عن الله ، لأن إسماعيل كان فى أمة العرب واسحق ويعقوب كانا فى بنى إسرائيل .

والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيمانى لخلقه ، لأنه لا علاقة أن يكون إسماعيل للعرب واسحق لغير العرب بوحدة المنهج الإلهى.ولذلك تقرأ قول الحق تعالى :

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة)

والله الذى بعث إسماعيل هو الله الذى بعث اسحق إله واحد أحد .. ومادام الإله واحداً فالمنهج الإيمانى لابد أن يكون واحدا .. فإذا حدث خلاف فالخلاف من البشر الذين يحرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم .. وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يضيف إليكم شيئا فى الآخرة .. إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننتسب إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق .. وإن كانوا غير ذلك فلا يضركم شيئا .



﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

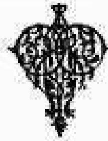
(سورة البقرة)

بعض السطحيين يقولون إن فى هاتين الآيتين تكرارا. . نقول إنك لم تفهم المعنى . . الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلى إبراهيم واسحق لن يشفع لكم عند الله بما حرفتموه وغيرتموه فى التوراة . . وبما تفعلونه من غير ما شرع الله.فاعلموا أن عملكم هو الذى ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

أما فى الآية التى نحن بصددها فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض ـ وهذا فرض غير

صحيح - إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم . . لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة . . ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أى كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة . . وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذى يشهد بأنهم كانوا مسلمين .

إياك أن تقول إن هناك تكراراً . . فإن السياق فى الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة فى نسبكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . والسياق فى الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة فى قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى . . فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يقبل الله حجتكم . . وهكذا فإن المعنى مختلف تماما يمس موقفين مختلفين يوم القيامة .



﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ١٤٢

هذه الآية نزلت لتصفى مسألة توجه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس .. وهذا أول نسخ فى القرآن الكريم .. يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية اللائقة ، لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف من كل من يعادى الإسلام ، فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك المنافقون واليهود .

الله تبارك وتعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات .. فيقول جل جلاله : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » .. حرف السين هنا يؤكد إنهم لم يقولوا بعد .. ولذلك قال سبحانه : « سيقول السفهاء » فقبل ان يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى:إن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون .

ويرغم أن الله سبحانه وتعالى قال : « سيقول السفهاء » .. أى أنهم لم يقولوها إلا بعد أن نزلت هذه الآية .. مما يدل على أنهم سفهاء حقا ، لأن الله جل جلاله أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم فى قرآن يتلى ويصلى به ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. قال : « سيقول السفهاء من الناس » .. فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكا فى القرآن الكريم .. لأنهم فى هذه الحالة كانوا يستطيعون أن يقولوا:إن قرآنا أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم » .. ولم يقل أحد شيئا ..

ولكن لأنهم سفهاء فعلا . . والسفه جهل وحمق وطيش قالوها . . فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المثبتين للإيمان الذين تشهد أعمالهم بصدق القرآن.لأن الله سبحانه قال : « سيقول السفهاء » وهم قالوا فعلا . . ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آبائنا وليست بيت الله . . فصرف الله رسوله فى أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس . . وعندئذ قال اليهود: يسفه ديننا ويتبع قبلتنا . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوى الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة للكل . . ولذلك أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . . حتى يدخل بيت المقدس فى مقدسات الإسلام لأنه أصبح محتوى فى الإسلام .

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم . . ووضع الأصنام فى الكعبة شهادة بأن لها قداسة فى ذاتها . . فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها فى الكعبة . . لماذا لم يضعوها فى مكان آخر ؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام .

والله سبحانه وتعالى حين قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » . . وَلاَّهُ يعنى حرفه ورده . . والقبلة التى كانوا عليها هى بيت المقدس . . وهنا يأتى الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة . . إنما علة التنفيذ فيما يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الآمر . . ولو أن الحق تبارك وتعالى بين لنا السبب أو العلة فى تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان فى القلوب . . لأن الإيمان والعبادة هى طاعة معبود فيما يأمر وما ينهى . . يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود فى الكعبة وتعظمه بالاستلام والتقبيل . . ويقول لك : ارجم هذا الحجر الذى يرمز إلى إبليس فترجمه بالحصى ، ولايقول الله سبحانه لماذا ؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الايمان هنا وأصبح الأمر مسألة اقناع واقتناع .

فأنا حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحا . . ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا . . فإن أكلت مما حرمه تكون آثما. وإن امتنعت تكون طائعا وتثاب .

إذن العلة الإيمانية هى أن الأمر صادر من الله سبحانه . . ولو أنك إمتنعت عن

شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . . ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما . . فهذه هى العبادة وهذا هو الثواب .

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال : « قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . . أى انك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أى مكان فى هذا الكون فالله موجود فيه . . فبيت المقدس ليس له خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذى يعطيها هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله .

قوله تعالى : « يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف.والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . . وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . . فالأمر لله .



﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه . . الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن ننتبه إلى نعمته فى أنه جعلنا أمة وسطا . . فكل ما يشرعه الله يدخل فى باب النعم على المؤمنين . . وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو اختبار لليقين الإيمانى فى نفوس المسلمين . . فإنه سبحانه جعلنا أمة وسطا نعمة منه ، ومادمنا وسطا فلابد أن هناك أطرافا حتى يتحدد الوسط . . هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . . ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا ؟ وسط فى الإيمان والعقيدة.فهناك من أنكروا وجود الإله الحق . . وهناك من اسرفوا فعددوا الآلهة . . هذا الطرف مخطىء وهذا الطرف مخطىء . . أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد . . وهذه بديهية من بديهيات هذا الكون . . لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل ما فيه وقال سبحانه إنه خلق . . ولم يأت ولن يأتى من يدعى الخلق . . إذن فالدعوى خالصة لله تبارك وتعالى . . ولو كان فى هذا الكون آلهة متعددة لادعى كل واحد منهم الخلق . . ولذلك فإن الله جل جلاله يقول :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

أى لتنازع الخلق ولاضطرب الكون . . فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة . . على أن هناك أناساً يسرفون فى المادية ويهملون القيم الروحية . . وأناساً يهملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها .

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة . . الإسلام جاء وسطا فيه المادة والروح . . وإياك أن تقول ان الروح أحسن من المادة أو المادة أحسن من الروح . . فالمادة وحدها والروح وحدها مسخرة وعابدة ومسبحة لله تعالى . . لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس ، والنفس هى التى لها اختيار تطيع أو تعصى . . تعبد أو تكفر والعياذ بالله .

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء . . وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادة وحدها . . وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء . . فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع خير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث فى ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية . . فما هو مادى معمل لا يختلف البشر فيه . . لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه . . فإذا عشتم بالأهواء ستشقون . . وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التى جاءت منذ أكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا ؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتقاءات على الكذب والزيف . . ثم تراجعت ثم انهارت تماما . . وكما انهارت الشيوعية ستنهار الرأسمالية لأنهما طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطا . . ولذلك أعطانا الله سبحانه خيرى الدنيا والآخرة .

الحق سبحانه يقول : « لتكونوا شهداء على الناس » . . أى أن الحجة ستكون لكم فى المستقبل . . وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى ما يقننه دينكم . . والله تبارك وتعالى قال : « أمة وسطا » ولم يقل الوسط بكسر الواو أى المنتصف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماما . . ولكن بعضهم سيميل

قليلا إلى هذه الناحية أو تلك بحيث يتم اللقاء . . ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونوزعها على الفقراء . . نقول لهم وعندما يأتى فقير فى المستقبل . . من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء ؟.

وقد سمعت من شخص له تجربة فى السياسة والحكم . . قال إن الذى كان يعمل معى وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسن منى . . لأننى احتفظت بأموالى ونميتها فقالوا إنك إقطاعى وصادروها . . بينما ذلك الذى أسرف لم يفعلوا به شيئا . . قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تنمى مالك . . لأنك إن لم تنمه ودفعت عنه زكاة ٢½٪ فالمال يفنى خلال أربعين سنة . . ولكن إذا نميت مالك وجاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعى فإنهم يقضون على العمل فى المجتمع . . لأنه إذا كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل ؟ إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك . . ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع . . هذا وسط .

وقوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » . . فكأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه ستحدث فى الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة . . فاليمين أو الرأسمالية على خطأ ، والشيوعية على خطأ . . أما منهج الله الذى وضع الموازين القسط للكون ولحياة الانسان فهو الصواب . . ثم يخبرنا الحق تبارك وتعالى ان الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيدا علينا . . هل كان عملنا وتحركنا مطابقا لما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام لنا ؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المنهج .

الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا فى هذه النقطة . . تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيعود إلى حكمها، فذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا سادت شهادة الحق والعدل فيها :

وقوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » . . هذه عودة إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . . الله تبارك وتعالى لا يفضل اتجاها على اتجاه . . ولذلك فإن الذين يتجهون إلى الكعبة ستختلف اتجاهاتهم حسب موقع بلادهم من الكعبة . . هذا يتجه إلى الشرق.وهذا يتجه إلى الشمال الشرقى . . وهذا يتجه إلى الجنوب الغربى .

إنه ليس هناك عند الله اتجاه مفضل على اتجاه .. ولكن تغيير القبلة جعله الله سبحانه اختبارا إيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم مشهد .. لأن الله سبحانه وتعالى يعلم .. ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة .. ولكنه اختبار إيماني ليعلم الله مدى إيمانكم ومن سيطيع الرسول فيما جاءه من الله ومن سينقلب على عقبيه .. فكأن أمر تحويل القبلة سيحدث هزة إيمانية عنيفة في المسلمين أنفسهم .. فيعلم الله من يستمر في إيمانه واتباعه لرسول الله .. ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

وقوله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » .. والله يريد هنا العلم الذي سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة .. وعملية الابتلاء أو الاختبار في تغيير القبلة عملية شاقة .. إلا على المؤمنين الذين يرحبون بكل تكليف .. لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلى علة الأشياء .

ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عملية تحويل القبلة تمر هكذا فقالوا : إن كانت القبلة هي الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام اتجهتم إلى بيت المقدس .. وإن كانت القبلة هي بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلى الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمنه .. قبلة بيت المقدس كانت في زمنها والكعبة تأتي في زمنها .. لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه .. ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة .. ورد الله سبحانه بقوله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .. لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم .

وقوله تعالى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .. أي تذكروا أنكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة .. رحيم يمنع البلاء عنكم .



﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾

نحن نعلم أن « قد » للتحقيق . . و « نرى » . . فعل مضارع مما يدل على أن الحدث فى زمن التكلم . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس . . وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحى من علو . . فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلى السماء مكان إيتاء الوحى . . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحى بتغيير القبلة . . فكأن هذا أمر شغله .

إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله الكريم فى السماء وأجابه ليتجه إلى القبلة التى يرضاها . . فهل معنى ذلك أن القبلة التى كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى بيت المقدس لم يكن راضيا عنها ؟ نقول لا . . وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل . . ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس . . وإنما كان يتجه إلى بيت المقدس وفى قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة . . هذا يدل على الطاعة والالتزام

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : « فلنولينك قبلة ترضاها » أى تحبها بعاطفتك . . ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلى هذا التغيير فكأن عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع مقدمات التحويل .

قال الله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف .. وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان فى مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهى بشىء اسمه الأفق وهو مدى البصر .. وما يخيل إليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض .

إن كل إنسان منا له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان تتسع الدائرة .. وإذا كان بصره ضعيفا يكون أفقه أقل ، ويكون هو فى وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه .

إذن الذى يقول الشطر هو النصف صحيح والذى يقول ان الشطر هو الجهة صحيح .

وقوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. أى اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو اجعل المسجد الحرام فى نصف الدائرة التى أمامك .. وفى الزمن الماضى كانت العبادات تتم فى أماكن خاصة .. إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجدا .

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمى المكان الذى نصلى فيه مسجدا .. ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصورا على الصلاة لله ولاتزاول فيه شيئا آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة .. أما المكان الذى تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه .. والكعبة بيت الله . باختيار الله.وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله .. ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

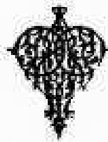
وقوله تعالى : « وحيثما كنتم » يعنى أينما كنتم .. « فولوا وجوهكم شطره » .. لأن الآية نزلت وهم فى مسجد بنى سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام .. وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل فى هذا المسجد فقط وفى الوقت الذى نزلت فيه الآية فقط قال تعالى : « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ..

وقوله جل جلاله : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله

بغافل عما يعملون » . . أى أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك فى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التى ذكرت فى التوراة والإنجيل . . ويعلمون أنه صاحب القبلتين . . ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصلى إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق ؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك .

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم . . لأنه فى التوراة أن الرسول الذى سيجىء وسيتجه إلى بيت المقدس ثم يتجه إلى البيت الحرام . . فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا فى زعزعة اليقين .

وقوله تعالى : « وما الله بغافل عما يعملون » . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . . فموقفهم ليس لطلب الحجة ولكن للمكابرة . . فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إيمانيا . . ولكنهم يريدون المكابرة .



﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ١٤٥



اتباع القبلة مظهر إيمانى فى الدين ، فمادمت آمنت بدينك فاتبع قبلتك .. لا أؤمن بدينك لا أتبع قبلتك .

وقوله تعالى : « ولئن أتيت » ساعة تسمع « ولئن » واو ولام وإن .. هذا قسم . فكأن الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته .. لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد .. ولو كانوا يريدون دليلا أو اقتناعا لوجدوه فى كتبهم التى أنبأتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبى الخاتم وأعطتهم أوصافه .. فكأن الدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفها وعنادا ومكابرة .

وقوله تعالى : « وما أنت بتابع قبلتهم » .. فكأنه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة .. ولكى يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون فى جانب ونحن سنكون فى جانب آخر .. وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم. قال سبحانه : « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » .. فالخلاف فى القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

وقول الحق : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » . . حين يخاطب اللهُ سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية . . وهو يعلم أن محمدا الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم . . نقول إن المقصود بهذه الآية هى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله يخاطب أمته فى شخصه قائلا : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » . . ما هى أهواء أهل الكتاب ؟ هى أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه فى كتبهم أنزله الله . . وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعا . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام . . إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان . . وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أى فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التى تفسد العقيدة كلها . . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف انه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو انها لن تحدث . . ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماما من الله على أى مستوى من مستويات الإيمان حتى فى مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماما .



﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٦)

الله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه . . يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ورسالته التى يحاولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يشرح لنا ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٨٩)

(سورة البقرة)

فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ومكتوب فى التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . . إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه ؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود . . أعرفه كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد . . فلما سألوه لماذا ؟ قال لأن ابنى أخاف أن تكون امرأتى خانتنى فيه أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه مذكورة بالدقة فى التوراة بحيث لا نخطئه .

إذن فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته . . والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن إقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا

وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . . وساعة تقول كتم الشيء..فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر . . والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود .

إن الذين يحققون فى القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . . فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة . . لأن النطق بالحق لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذى يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم النطق بالحق عملية شاقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « ليكتمون الحق وهم يعلمون » . . أى أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة . . والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه ؟ طبعا لا ، لابد أن يظهر . . فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذى يحدث فى الجسد . . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئا أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هى التى لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات وقت العلاج . . والحق دائما غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين . . أما الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل.وبين حق وباطل.لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير . .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهى بهزيمة الباطل بسرعة . . ولكن الذى يطول هو معركة بين باطلين . . ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا . . فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلا لازالت آثارها ممتدة حتى الآن فى الحرب الباردة وغير ذلك من الحروب الصغيرة . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1].

---

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس .

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

الحق من الله سبحانه وتعالى .. ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون فى أن الحق سينتصر .. ولكن الحق لابد من قوة تحميه .. وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهى بجوهره
وليس يعمل إلا فى يدى بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار .. دون أن توجد اليد القوية التى ستضرب به .. ونحن غالبا نكون مضيعين للحق لأننا لا نوفر له القوة التى ينتصر بها .

وقوله تعالى : « فلا تكونن من الممترين » .. الممترى هو الذى يشك فى حدوث الشىء .. والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب على نسبة .. أى أن الاحتمالين متساويان .. ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله .. ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل فى جدل عقيم حول إنتصار الحق .



﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا
يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختارا . . ومن هنا فإن له الاختيار فى أن يؤمن أو لا يؤمن . . أن ينصر الحق أو ينصر الباطل . . أن يفعل الخير أو يفعل الشر . . كل هذه إختيارات شاء الله أن يعطيها للإنسان فى الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد.إن هذا الاختيار موجود فى الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهى ساعة الاحتضار فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهورا وليس مختارا . . فهو لا يملك شيئا لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن . . انتهت بشريته وسيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه . . ففى الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التى يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان . . هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فمادام للانسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر . . والذى يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها . . لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين فى الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله . . لأنه كما يقول عز وجل : « أينما تكونوا يأت بكم اللهُ جميعا » . . أى أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى بل هو يعرف أماكنكم جميعا واحدا واحدا وسيأتى بكم جميعا مصداقا لقوله تعالى :

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

(سورة الكهف)

وقوله سبحانه :

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقينا أننا لا نستطيع أن نفر من علمه . ولا من قدره ولا من عذابه . . وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله . . وانه لا منجاة من الله إلا إليه . . ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله . . ولا يظن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع أن يختفى .

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم فى منعة من الله وأنهم لن يلاقوه . . نقول لهم إنكم ستفاجأون فى الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق.ستفاجأون بما سيحدث لكم . . ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزى والعذاب الأليم . . إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع فى الخيرات لننجوا من عذابه ، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب . . ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : « إن الله على كل شىء قدير » . . أى أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء ولا يخرج عن طاعته شىء . . إنه سبحانه على كل شىء قدير .



﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

لابد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة .. أكدها ثلاث مرات متقاربة .. لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة فى نفوس المؤمنين .. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيدا إيمانيا .

لقد جاء بثلاث آيات التى هى أقل الجمع .. واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد .. والثانية للمتجه وهو خارج المسجد .. والثالثة للمتجه من الجهات جميعا .

قوله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك فى الإسلام .. بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة .. على أساس انها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة فى التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن .. فالجهد الذى يبذله المؤمن فى الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذى يبذله فى الاتجاه إلى البيت الحرام .. فأنت إذا اتجهت فى صلاتك يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة. فما هو سبب التغيير ؟ .

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك فى تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية .. يقول المولى جل جلاله : « وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » .. أى أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى .. والله عز وجل ليس غافلا عن عملكم بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام. بل الله يعلم ما تبدون وما تكتمون .. فاطمئنوا انكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام .. واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم فى كل ما تعملون .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام . . سواء كانوا فى المدينة أو فى خارج المدينة أو فى أى مكان على الأرض . . وتلك هى قبلتهم فى كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذى يصلون فيه .

وقوله تعالى : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » . . الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى . . حجة فى ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فاتجهوا إلى المسجد الحرام . . وليس لبيت المقدس قدسية فى ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية فى ذاته كما قلنا . . ولكن نحن نطيع الأمر من الأمر الأعلى وهو الله . . إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا . . فمن هو الظالم ؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته.أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق . . والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه : « فلا تخشوهم » أى لا تخشوا الذين ظلموا : « واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » . . أى أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشرا . . لأنه يعلم أن القوة لله جميعا . . ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحدا إلا الحق .

وقوله سبحانه : « ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » . . تمام النعمة هو

الإيمان.وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمه علينا . ولكى يكون الإيمان صحيحا ومقبولا فلابد أن أؤدى مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع . لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بعشق . . وأنت حينما تأتى إلى المنهج قد يكون شاقا ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف . . لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل فى المعصية بعقابه . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾

(سورة البقرة)

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذى ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذى يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . . ولذلك فى حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وكان ذلك إخبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . . ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . كأنه يحكم بأن هذا فى وسعه وهذا ليس فى وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . . نقول له أكَلَّفَ الله أم لم يُكلِّف ، إن كان قد كَلَّف فيكون التكليف فى وسعك . . لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر بالتخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار فى رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما فى وسعك .

قوله تعالى : « ولعلكم تهتدون » . . الهداية هى الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هى أن تصل إلى نعيم الأخرة . . الله أعطاك فى الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة . . بل الغاية أن تذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هى عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى . . والله جل جلاله يأتى ليعلمنا فى الأخرة انه خلقنا لنعيش فى الدنيا بالأسباب وفى الأخرة لنعيش فى كنفه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى : «ولعلكم تهتدون» . . أى لعلكم تنتبهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم . . ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هى الغاية أو هى النهاية أو هى الهدف . . فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . . نقول لا ، إنه فى هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هى فى الأخرة.ولعرف أن نعيم الأخرة الذى لا تفوته ولا يفوتك . . يجب أن يكون هدفنا فى الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب فى الجنة .



﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ ﴾

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه وإلى طريقه . حدثنا عن نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله.ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى ستأتى على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الخاتم .

قوله تعالى : « رسولا منكم » أى ليس من جنس آخر.ولكنه صلى الله عليه وسلم رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتى بالحجة . . لماذا ؟ لأنه معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان رفعة وعلوا واحتراما . . إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه أكثر من غيرهم . . كأبى بكر الصديق وزوجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة وابن عمه على بن أبى طالب . . هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة . . فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط.فقالوا إن الذى لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا . . فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه ربه . . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾

(سورة التوبة)

الحق سبحانه يقول : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم » . . الآيات هى القرآن الكريم والتزكية هى التطهير ولابد أن يكون هناك دنس ليطهرهم منه . . فطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا . . ومعنى التزكية أيضا سلب الضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وقوله تعالى : « ويعلمكم الكتاب والحكمة » . . الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم.والحكمة هى وضع الشىء فى موضعه . . والكتاب يعطيك التكليف إما أن يأمرك بشىء وإما أن ينهاك عن شىء .

إذن فهى دائرة بين الفعل والترك . . والحكمة أن تفعل الفعل الذى يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر.وهى مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التى توضع فى فم الجواد لتحكم حركته فى السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدى الغرض منها والحكمة أيضا هى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الاحزاب)

وقوله سبحانه : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » لأنكم أمة أمية.فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التى تجعلكم متفوقين عليهم . . فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض . . لذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما عمر لولا الإسلام .



﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : « فاذكرونى » أى كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . . أن تعيشوا دائما فى ذكر من أنعم عليكم . . فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم . . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى :

[أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وأن تقرب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتانى يمشى أتيته هرولة][1] .

هذه هى رغبة الكريم فى أن يعطى بشرط أن نكون أهلا للعطاء لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر . فقوله تعالى : « اذكرونى » أى اذكروا الله فى كل شىء . فى نعمه . فى عطائه . فى ستره . فى رحمته . فى توبته . يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم انك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثا . . أول جرعة قل بإسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله . . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله . فمادام هذا الماء فى جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدك بمعصية الله . جربها يوما فى نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمدلله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلت النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأنهيت النعمة بحمد الله . ولكن لماذا الماء؟ لأن الماء فى الجوف أشبع من أى شىء آخر .

---

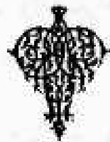
(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد فى مسنده بألفاظ مختلفة .

قوله تعالى : « وأشكروا لى ولا تكفرون » الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم منى . « ولا تكفرون » أى لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم . . فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك « ماشاء الله لا قوة إلا بالله » لا ترى فى النعمة مكروها أبدا لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم . . أعطيت لله حقه فى نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .



﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله . . على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة . . ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الجزع من أى شيء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامى الناس فى العبادة .

فمثلا سئل الإمام على رضى الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه ؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكأنه ليس مطلوبا منك فقط ألا تؤذى جارك بل تصبر على أذاه . . والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلى الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبداً ستأخذه فيها بعد عادة.يقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إنى أسالك ألا تكلنى إلى نفسى فإنى أخشى يارب ألا تثيبنى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . . أنظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محببة إلى النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الأذان :

(أرحنا بها يا بلال) .

ولم يقل كما يقول بعض الناس والعياذ بالله أرحنا منها ، ذلك أن هناك من يقول

لك:أن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها .؛. لأنك وقفت بين يدى الله المكلف ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتى ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربى ورب العالمين . . الذى له أب يعينه لا يحمل هما فمابالك بالذى له رب يعينه وينصره .

قول الحق سبحانه : « إن الله مع الصابرين » أى أنه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معية الله ؛ فأنت لو واجهت المشكلات فى معية من تثق فى قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت فى معية الله وكل شىء فى الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شىء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم . . وإنما من يعيش فى حضانة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس . . ما معنى خناس ؟ إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف؛فهو لا قوة له . . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر . . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟ يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

[يا بن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده][1] ؟ يقول بعض الصالحين : اللهم إنى أستحى أن أسألك الشفاء والعافية

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

حتى لا يكون ذلك زهدا فى معيتى لك .. إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائما فى معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله مع الصابرين » .. ونحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائما .. إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى فى حركة حياته من المشقة .



﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة . . لا تهددهم فى أموالهم فقط ولكن تهددهم فى نفوسهم ، فأراد الله عز وجل أن يعطى المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث . . وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزهم بعنف . . قال لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل . . إلى الاستشهاد فى سبيل الله. وأراد أن يطمئنهم بأن الشهادة هى أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها فى الدنيا فقال سبحانه : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات » .

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان . . فأنت تصاب فى مالك أو فى ولدك أو فى رزقك أو فى صحتك ، أما أن تصاب فى نفسك فتقتل فهذه هى المصيبة الكبرى . . والله سبحانه وتعالى سَمَّى الموتَ مصيبة. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة المائدة)

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذى يقتل فى سبيل الله لا يموت . . وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى. يقول جل جلاله : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

ما.هو مظهر الحياة التى يعيشونها ؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذى قتل فى سبيل الله ما.هى حركته ؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة . . لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى خير مما هو فيه . . فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئا وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها . . أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمى لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة .

إن كل المعارك التى يستشهد فيها المؤمنون إنما هى سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان فى الوجود . . وعظمة الحياة ليست فى أن أتحرك أنا ولكن أن أجعل مَن بعدى يتحرك . . والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره فى الوجود لكل حركة من متحرك بعده . . فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمانى دافعا لتقاتل وتستشهد.فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة . . أما الكافر فإن الحياة تنتهى عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأتى بالموت فيموت . . وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما فى الجنة وإما فى النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل فى سبيل الله هو حى عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة . . ولا يكتب عليه الموت فى حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا . . ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الأخرة . . وهى غيب عنا قال تبارك وتعالى : « ولكن لا تشعرون » . . ومادمنا لا نشعر بها فلابد أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية .

الذى استشهد فى عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه فى عرف الله أخذ حياة جديدة . . ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمامنا . . لابد أن تتنبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال : « أحياء عند ربهم » ولم يقل أحياء فى عالم الشهادة . . فهو حى مادام فى عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسدا فى قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . . أما كيف ؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف . . لذلك لن تعرف وليس مطلوبا منك أن تعرف .

إننا حين نجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكى يفقده الوعى والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجرى العملية فلا يشعر المريض بشىء من الألم .

فالمادة لا تحس لأنها هى التى أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس . . ولكن النفس الواعية التى غابت هى التى تحس بالألم .

أنت عندما يكون هناك ألم فى جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم فكأن الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعى . . فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة . . والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا انه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « إنهم أحياء عند ربهم » . . فلابد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده . . والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فكأن الحق جل جلاله يعطى الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا فى سبيله . . ومادام تعالى قال : « لا تشعرون » فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لابد أن يقتل فى سبيل الله وليس لأى غرض دنيوى . . وإنما لتكون كلمة الله هى العليا .

